الفصل الرابع

الفنون الحربية

اولا ـ النظم الحربية .

ثانيا ـ العمارة الحربية .

أولا ـ النظم الحربية :

يرى البعض فى الحروب الصليبية أنها كانت فصلا من فصول الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى • وكان اللقاء الحربى أحد وجوه ذلك الصراع بين الفريقين الاسلامى والصليبى ؛ فريق أتى بقصد الغزو والاستيطان ، وفريق آخر وقف موقف المدافع عن أرضه وتراثه • وبين هذا وذاك ظهرت صورة الفنون الحربية لكل منهما ببلاد الشام •

ويلمس الدارس لأحوال الحملة الصليبية الأولى التى انتهت باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م أنها حملة اقطاعية بكل ما انطوت عليه ، قامت على أساس النظام الاقطاعى الغربى الذى ساد أوروبا أواخر القرن الحادى عشر (١) • والخدمة الحربية للفرنجة فى الشرق تشبه ما جرت به العادة مع مثيلتها فى الغرب الاوروبى ، مع اختلاف طفيف أملته الظروف المستحدثة فى الشام • ففى مملكة بيت المقدس وجب على الفصل أن يؤدى ما عليه من خدمة ، وأن يجهز نفسه بكامل المعدات الحربية اذا دعى للخدمة، بصرف النظر عن الحد الزمنى الذى تتطلبه الخدمة العسكرية (٢) • واذا كانت مدة الخدمة العسكرية محددة فى الغرب الاوروبى بأربعين يوما ، الا انها فى الشرق كانت بخلاف ذلك ، نظرا للتحدى المستمر من جانب المسلمين المحيطين بالصليبيين ، بالاضافة الى أن كل خدمة يؤديها الفصل كانت على نفقة السيد الاقطاعى (٣) •

ومن الناحية النظرية ، كان ملك بيت المقدس يعتبر القائد الاعلى

---

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٩٤ ـ ٩٩ ،
ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، ص ٤٧

(٢) La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom. PP. 141 - 142
العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، ص ٥ •

(٣) العرينى : المرجع السابق ، ص ٦ ،
ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ٤٧ •

للجيوش ، يقع عليه عبء تنظيم الدفاع عن المملكة ، وله السلطة على الامراء والبارونات (١) · ولكن تلك السلطة كانت ناقصة مبتورة ، اذ انها تحطمت على صخرة فوضى البارونات الذين لم يمتثلوا للطاعة ، مما أدى الى الاخلال بالوحدة والنظام ، وانعكس الوضع على نتائج العمليات الحربية (٢) · وظهرت المنافسات بشكل آخر ، عندما تأتى حملات صليبية جديدة الى بلاد الشام فى اعداد ضخمة ، فيرفض رؤساؤها وضع أنفسهم تحت سيطرة ملك بيت المقدس ، ويقومون بمشاريع كانت تتصف بالطيش فى معظم الاحوال (٣) · .

والقعود عن تأدية الخدمة الحربية ، والتقاعس عن الاستجابة لدعوة الملك ، من الامور الخطيرة فى النظام الاقطاعى ، التى تستوجب معاقبة مرتكبها بسحب الثقة منه ، وفسخ العقد العرفى المعقود معه ، فضلا عن مصادرة املاكه (٤) · ويلاحظ المرء ان كبار الاقطاعيين الصليبيين فى الشام كانوا يرفضون احيانا تقديم الخدمة الحربية للملك ، بل ان البعض منهم لم يتردد فى الزحف بجيشه ضد الملك ، عندما تتعارض اطماعه ورغباته الشخصية مع رغبات الملك (٥) · .

واذا كانت الخدمة الحربية هى الاساس الاول لحيازة الاقطاع عند الصليبيين ، وهو ما يتفق مع النظام الاقطاعى فى الغرب الاوروبى ، فاننا نجد نفس الامر عند المسلمين فى الشام على زمن الحروب الصليبية · والجدير

---

(١) Longnon : Les Francais d'Outre mer au Moyen Age. P. 122

العريني : المرجع السابق ، ص ٥ ·

(٢) Longnon : op. cit. PP. 122-123 & Chalandon : Histoire de la Premiere Croisade

(٣) PP. 315-316 Chalandon : op. cit. P. 317

(٤) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ٥٧ ، العريني : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٤ ·

(٥) Chalandon : op. cit. PP. 295-296

بالذكر هنا أن النظام الاقطاعى الحربى انتقل كاملا الى الدول التى نبتت وتفرعت فى احضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد ، وهذه الدول هى : الدولة الزنكية والدولة الايوبية ، ثم دولة المماليك (١) • وكانت القاعـــدة المألوفة فى الدولة السلجوقية قائمة على اعطاء مرتبات المحاربين نقدا حتى منتصف القرن الحادى عشر (٢) • ثم أدى اتساع الدولة وصـــعوبة الهيمنة عليها ، وارهاق الادارة المالية بباهظ المرتبات ، الى تفكير وزير ملكشاه ــ نظام الملك ــ فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الارض ، حتى صار الاقطاع الحربى هو القاعدة (٣) • غير أن النظم الاقطاعية فى الشـــرق الادنى لدى المسلمين اعترفت بوراثة الاقطاع ، لاسيما على عهد نور الدين محمود، فاذا حدث أن توفى أحد أجناده ، « وخلف ولدا ، أقر اقطاعه عليه » ، وان كان الولد كبيرا تولى حقوق اقطاعه وواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه السلطان رجلا وصيـــا حتى يكبر (٤) • وقد أدى ذلك النظام الـــذى وضعه نور الدين محمود الى جعل الاقطاع الممنوح للجندى فى وضع مســـاو للملكية ، مما ادى الى تكالبه فى الدفاع عن نفسه والاستماتة من أجله ، فضلا عن تلبية نداء واجبات الحرب فى اسرع وقت ممكن ، اذا طلب منه ذلك (٥) •

ومن الواضح أن الخصائص الاستراتيجية للوجود الصليبى بالشام عقب سقوط بيت المقدس على ايديهم عام ١٠٩٩ م ، لم تزد على انها مجموعة

---

(١) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٣٠ •

(٢) أبو الحسن على : اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٨ •

(٣) الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٥ ،
نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٢ ــ ص ٣ •

(٤) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٧ ــ ص ١٢٨ •
المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ص ٢١٥ •
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ١٦٩ •

(٥) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٩ •
كرد على : خطوط الشام ، ج ٢ ، ص ٦٩ •
العرينى : الاقطاع فى الشرق الاوسط ، ص ١٤٢ ــ ص ١٤٣ •
ويبدو أن المرتبات النقدية ظلت موجودة فى العصر الايوبى فقد روى ابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين ، ص ٣٦٩ أن عبرة الاقطاعات المقدرة للجندى من الاتراك والاكراد والتركمان دينارهم الاقطاعى دينار واحد كامل •

متفرقة من المدن والقلاع ، انتظمت سويا فى وضع محفوف بالخطر • فدولة الصليبيين فى أقصى اتساع لها يمكن تشبيهها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من انطاكية غربا الى الرها شرقا ، وضلعه الايمن من الرها الى أيلة على البحر الاحمر ، وضلعه الجنوبى من ايلة الى غزة ، وضلعه الغربى من غزة الى انطاكية ، هذا مع اعترافنا بما فى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ، اذ ان الفرنجة امتلكوا أراضى ومدن خارج حدود تلك الرقعة (١) • والمعروف أن طول بلاد الشام من الشمال الى الجنوب لايتجاوز ٥٥٠ ميلا ، فى حين ان عرضها من البحر حتى الصحراء يتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا (٢) •

أما الخصائص الاستراتيجية للوجود الاسلامى ، فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا ، ففى الشمال حلب وحماه ، والى الشرق منهما الموصل وقلاع الجزيرة ، وفى الغرب مصر وما وراءها غربا وجنوبا ، ثم ان القاهرة غدت فى عصر الايوبيين قاعدة للتدريب والتموين (٣) •

وقد أدرك الصليبيون منذ ان وطئت اقدامهم ارض الشام أنهم فى أمس الحاجة الى أراضى جديدة ، حتى يوطدوا مركزهم • ولا يتيسر ذلك الا اذا توافرت لهم القوة الحربية الكفيلة بتحدى المسلمين ، والقيام بأى عمل حربى ضدهم • ولانستطيع أن نعرف بالتحديد الاعداد التى احتوتها القوة الحربية للصليبيين ، ولكن على سبيل التخمين • فبعض مؤرخى الحملة الصليبية الأولى ، لم يسعه عند رؤية اعداد ضخمة من الرجال ، الا ان يقدر ذلك بمئات الالوف ، وزعم أن عدد قوات الحملة الصليبية الاولى يتراوح بين ٣٠٠ الف، ٦٠٠ ألف مقاتل (٤) • والبعض اقتصد فى تقديره ، فجعل القوة الحربية

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٧٧ •

(٢) Hulme : The Middle Ages. P. 481

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٧٣ •

(٤) العريني : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٣ •

الضاربة التى وقفت أمام اسوار بيت المقدس ليلة ١٣ ــ ١٤ يوليو عام ١٠٩٩م تبلغ ١٢ ألف من الرجالة ، و ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان (١) • ويشير وليم الصورى الى أن الجيش الصليبى فى عسقلان لم يتجاوز ١٢٠٠ فارس، وستون ألف راجل (٢) ؛ وذلك قبل أن يعـــود الكثير من الصليبيين الى بلادهم فى الغرب الاوروبى • ويذكر وليم الصورى ايضا أن جيش جودفرى (ت ١١٠٠) صار لايزيد عن ثلاثمائة من الفرسان ، وحوالى الفين من الرجالة (٣) • ومن الثابت أن اعداد المحاربين كانت مرتفعة فى الحملـــة الصليبية الاولى ، كما أن أعداد غير المحاربين كانت مرتفعة ، بمعنى أن الجيش الصليبى احتوى على اعداد هائلة من الفرسان والرجالة والصبية والشيوخ ورجال الدين والنساء ، ومن المرجح ان نسبة الوفيات من غيـــر المحاربين كانت مرتفعة خاصة بين الشيوخ والاطفال ، كما ان الفرسان حاقت بهم خسائر فادحة لتعرضهم للخطر خلال المعركة (٤) •

أما بالنسبة لتقدير حجم الجيوش الاسلامية ، فمن المستحيل علينا أن نقدر حجمها ، فالمؤرخون المسلمون مالوا الى المبالغة فى تقدير واحصاء عـــدد الجيوش والقتلى والجرحى والاسرى والمفقودين فى المعارك ، وهـــــم فى ذلك قد التقوا مع الصليبيين فى نقطة واحدة (٥) • ومن المحقق أن الجيـوش الاسلامية ، فاقت فى عددها الجيوش الصليبية ، وان الاخيرة لم تصل الى الحد الادنى من حجمها فى أى حال • وقد ذكر المقريزى ان الجيش النظامى لصلاح الدين تألف عام ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) من ٨٦٤٠ فارسا ، منهم ٨١ اميرا ، و ١٥٥٣ قراغلامية ــ وهم فرسان مزودون بأسلحة خفيفة ــ ، و٦٩٧٦

---

(١) Roymond of Aguilers, in R.H.C. Historiens Occidentaux, Vol. III P. 298

(٢) Recuil des Historiens Croisade. Historiens Occ., Vol. I P. 380

(٣) William of Tyre : A Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Vol. I P. 394

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٤٨١ ــ ص ٤٨٤ •

(٥) نظير سعداوى : ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٢٢ •

من الطواشية ـ وهم فرسان مزودون بأسلحة ثقيلة ـ بالاضافة الى الاجناد الوطنيين الذين يتقاضون أرزاقهم من بيت المال (١) ٠

ولابد لنا فى مجال الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحـــروب الصليبية أن نتناول الفئات التى تالف منها كل من الجيش الاسلامى والجيش الصليبى ٠

والواقع أن الجيش الاسلامى بلغ ذروة تنظيمه على عهد السلطان صلاح الدين الايوبى (١١٦٩ ـ ١١٩٣ م) ٠ ويلمس الدارس لـــذلك الجيش أن المصادر التاريخية المعاصرة أوردت لفظين هما العسكر والجند ، استخدما فى غير دقة ولا تحديد ٠ والمقصود من العسكر على عهد صلاح الدين الجيش النظامى ، أما الجند فهم الجيش الاحتياطى أو الجيش الاقليمى (٢) ٠
ويقوم أفراد الجيش النظامى أو الثابت بالخدمة الحربية بصـــفة دائمة ، ويتقاضون راتبا منتظما ، ولا يفارقون السلطان ، واحيانا يكلفون بحراســة القلاع والحصون والدفاع عنها ٠ وجعل صلاح الدين هذا الجيش من الاكراد والترك والتركمان ، وهم الذين اعتادوا حياة التقشف والخشونة ٠ وطريقتهم فى القتال أن يجعل كل منهم جزدان وجراوة وصواق وبقجة وتركاش ، ممتطيا جواده ويطلق عليهم الفرسان (٣)/ ٠ أما الجند فهم فى الحقيقة عســـاكر الامراء او مماليك الامراء او اجناد الامراء ٠ فكان على كل امير اذا نشبت الحرب، أن يشترك فيها بجنده ، وبمجرد أن تنتهى الحرب عادوا الى مراعيهم وخيامهم ، وهم لايتناولون اجرا ثابتا مثل العسكر ، ولكن يأخذون نصيبهم من الاسلاب والغنائم (٤) ٠ وفى الشام وجدت قوات عسكرية لكبار الطوائف الدينية كالدروز والحشاشين ، وتدخل تلك القوات فى عداد الجيوش الاقليمية٠

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٦ ـ ص ٨٧ ٠
(٢) نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٨ ٠
(٣) المرجع السابق ، ص ٨ ـ ص ١٠ ٠
(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

والى جانب هؤلاء ، تكونت فرقة حربية حديثة العهد عرفت باسم « الاحداث » أو أحداث المدن • وهم كثيرو الشبه بالحرس الوطنى فى العصور الحديثة ، وكانوا من الشبان المحاربين المتطوعين من ابناء المدينة ، كما كانوا يعيشون فى ظل نظام خاص ؛ واشتهر الاحداث فى دمشق بنشاطهم فى الوقوف ضد استبداد الحكام المحليين ، وكذلك فى الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاه الاجانب ، وازدهر نشاطهم بشكل خاص فى الفترة الممتدة من القرن الرابع الى القرن السادس الهجرى (من القرن العاشر الى الثانى عشر الميلادى) (١) • واتخذ الاحداث رئيسا لهم ، وصارت الرئاسة ـ فى بعض الاحيان ـ تتوارثها بعض الاسر (٢) ، وعند قدوم الصليبيين الى الشام ساهم الاحداث فى توجيه الهجمات عليهم • واعتمد نور الدين محمود عليهم اعتمادا كبيرا فى حروبه مع الصليبيين ، على انه منذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، صار الاحداث يسمون المتطوعة ، ومن ثم اختفت كلمة احداث ابتداء من عهد صلاح الدين الايوبى ، وحل محلها كلمة المتطوعين (٣) •

ولا ريب أن البدو العرب قد حاربوا ببسالة فى المعارك وحرب العصابات، والغارات المفاجئة ، فضلا عما قاموا به كأدلاء فى الصحارى لمعرفتهم بالدروب

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ٦٦ •
حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠٦ ،
Ziadeh : Urban Life in Syria Under the Early Mamluks. P. 76

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
حامد زيان : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ـ ص ١٠٧ •
وقد حدث أن اختير رئيس أحداث حلب من بين اللصوص ، وذلك لدرايته باللصوص والشطار حتى يتعذر عليهم ممارسة نشاطهم داخل حلب (أنظر ابن الندبم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩) •

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
نظير سعداوى : جيش مصر فى ايام صلاح الدين ، ص ١٥ ـ ص ١٦ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٥ •

والمسالك ، واستخدمهم صلاح الدين فى مواضع كثيرة · على أن البعض منهم لم يكن مخلصا للجيوش الاسلامية ، ففى عام ١١٧٢ م (٥٧٨ هـ) توجه صلاح الدين من مصر بغرض محاصرة الكرك والشويك ، فوجد جماعة من البدو نازلين بأرض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين (١) وبذلك طعنوا المسلمين من الخلف وآذوهم فى خطوط تموينهم ، وطرق مواصلاتهم طمعا فى المال ·

ومهما كانت العناصر التى ساهمت فى تكوين جيش صلاح الدين ، فانه قسمه الى عدة فرق تشبه اللواءات فى وقتنا الحاضر ، وتنسب كل واحدة منها الى سلطان سابق،فيقال المماليك النورية نسبة الى السلطان نورالدين محمود أو تنسب الى أحد القواد العظام السابقين ، فيقال المماليك الأسديةنسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين · أما مماليك صلاح الدين ، فأطلق عليهم عدة اسماء ، فيقال لهم المماليك الصلاحية نسبة اليه ، أو الناصرية نسبة الى لقبه الملك الناصر · وقد تنسب الفرقة الى جنسية أفرادها ، فيقال الطائفة الكردية نسبة الى الاكراد ، ويتفرع منها طوائف أخرى مثل الهكارية والمهرانية والحمدانية والزرزارية (٢) · ومعظم الجيش الايوبى كان من الاكراد، ولم يكن فى الجيوش النظامية من العناصر المصرية والشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع (٣) ·

على أن المصادر الأيوبية قد خلت من ذكر تفصيلات عن تقسيم تلك الطوائف الى أقسام أصغر منها · ولكن ما جاء فى مراجع عصر دولة المماليك، وهو العصر الذى يمثل اكتمال النظم الحربية ، ما يلقى الضوء على تلك التفصيلات اذ أن اكابر الامراء من له امرة مائة فارس وتقدمة الف فارس ، ومن هذا الفريق يكون اكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين؛ ثم امراء الطبلخانات ، ومعظمهم من يكون له امرة اربعين فارسا ، وقد يزيد

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ ·
(٢) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ٢٥ ـ ص ٢٩ ·
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٢ ـ ص ١٢٤ ·

على السبعين ، ثم امراء العشراوات ومنهم من يكون له امرة عشرون فارسا، ولا يعد الا فى امراء العشرات ؛ ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل أربعين نفرا منهم مقدم (١) • وكان السلطان الملوكى ينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ولجميع الامراء من المئين والطبلخاناه ، والعشروات ، الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت (٢) •

أما الجيش الصليبى ، فقد سبق القول أن ملك مملكة بيت المقدس كان على رأسه ، وهو القائد الاعلى للجيوش الصليبية حسب النظام الاقطاعى الاوروبى • وقد ساعد الملك فى مهام قيادة الجيش ثلاثة موظفين كبار وهم الكوندسطبل (الكونستابل) Le Connetable والمارشال Le Maréchal والقهرمان (السنجال) Le Sénéchal (٣) •

والكونستابل هو رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فهو الذى يجهز للملك رؤساء أو قائدى الجماعات ، وفى حالة غياب الملك عن المعركة ينوب عنه فى قيادة الجيش وتنظيمه من أجل القتال • وفى نفس الوقت يعتبر الكونستابل « الرئيس القضائى » فجميع رجال السلاح والفرسان وضباط النظام (السرجنديون) Sergents خاضعين لسلطته القضائية ، ويستطيع أن يضرب بعصاه أو مطرقته كل جنود المشاه أو الخيالة الذين لايرجعون الى أصل نبيل فى حالة عدم اطاعتهم الاوامر، غير أنه ليس من حقه رفع يده على فارس من أصل نبيل متحالف مع الملك ، ولكن ذلك الفارس اذا ارتكب خطئا ما ، فان للكونستابل الحق فى قتل الحصان الذى يعتليه الفارس (٤) •

ويأتى المارشال فى المكانة بعد الكونستابل ، وعليه أن يقدم للاخير واجب الطاعة والاحترام ، ومهمة المارشال هى الاعتناء بتموين الجيش والتفتيش

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ـ ص ٢١٥ •
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ •
(٣) Chalandon : op. cit. P. 318
(٤) Ibid. Loc. cit.

عليه ، وترتيب المعسكرات ، وتوزيع الغنائم بين اقسام الجيش المختلفة ؛ كما انه فى حالة غياب الكونستابل عن المعركة ، فعليه الوقوف الى جانب الملك حاملا الراية الملكية ؛ وللمارشال وظائف قضائية اقل مما للكونستابل فهو يفصل فى قضايا الاتباع الصغار ، والمشرفين على الاصطبلات ، والخدم المرافقين للجيش (١) .

أما القهرمان أو السنجال ، فكانت اختصاصاته العسكرية تقل فى الاهمية عن الاختصاصات المناطة لكل من الكونستابل والمارشال ، والواجبات الملقاة على عاتقه هى فحص القلاع والحصون ، والعمل على أن تكون حاميات تلك الأماكن على أهبة الاستعداد ومعدة اعدادا كاملا ، فضلا عن توفير المؤن لها : ولا يحق للسنجال اذا اشترك فى معركة أن يقف الى جوار الملك ، وعليه أن يتسلم من المارشال حصة الملك فى الغنائم (٢) .

وقد وجدت ثلاثة اشكال من الجنود هم الفرسان من طبقة النبلاء . والسرجنديون الذين يكونون المشاة والخيالة الخفيفة وهم ليسوا من طبقة النبلاء ، والتركبولية وهى قوات من الخيالة الخفيفة يتم تجنيدها من بين اهالى البلاد والوطنيين (٣) .

والتمييز واضح بين طبقة الفرسان والطبقتين الاخيرتين ، فبالنسبة للفرسان وهم من طبقة النبلاء ، اعتبرت الخدمة الحربية ـ كما اسلفنا القول ـ التزاما شخصيا مرتبطا بالنظام الاقطاعى . فالفارس عندما يطلبه سيده الاقطاعى لاداء الخدمة ، ما عليه الا أن يلبى النداء مسرعا ، فيقدم نفسه مسلحا امام سيده ومعه رجاله . وعلى الفارس أن يتحمل نفقاته ونفقات رجاله فى الحملة العسكرية ، واذا فقد حصانه أو اسلحته فلا بد أن ينال غيرهم وتلك الاسلحة كانت ـ على وجه التقريب ـ السيف والحربة فقط ، ومن عاداته

---

(١) Ibid. PP. 318 - 319

(٢) Ibid. P. 319

(٣) Ibid. P. 320

ان يقاتل دائما على ظهر حصانه (١) • وواجب الفارس فى وقت السلم أن يجهز عدته الحربية ، وأن يكون ورجاله على اهبة الاستعداد (٢) •

أما طبقة الاجناد (السرجنداریة) فهى ليست سوى الرجالة ، الذين كان عددهم وفيرا ، وينتمون الى أصل فرنجى ، بيد انهم لايعتزون بشرف المولد مثل الفرسان والنبلاء (٣) •

ولا يتبقى من القوات المساعدة فى الجيش الصليبى ، سوى التركبولية الذين يشكلون الخيالة الخفيفة La Cavalerie Légere وفى العادة كان يتم تجنيدهم من بين أهالى البلاد الاصليين،الذين ينتمون فى أصولهم الى العرب او الاتراك ، وهم يعينون تحت امرة المارشال الذى ينظم صفوفهم خلال المعركة ، ولا يتلقون الاوامر الا منه ، كما انه ليس عليهم مقدمون من جنسهم • ويبدو أن التركبولية استخدموا بوجه خاص فى مهام الاستطلاع (الاستكشاف) (٤) •

وعندما تم توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين الايوبى ، واضحى الصليبيون فى الشام بين شقى الرحى ، اضطروا الى الاستعانة بالجنـــد المأجورة أو المرتزقة، من أجل الدفاع عن بقائهم والمحافظة على فتوحات اسلافهم، بيد أن تكاليف الجند المرتزقة كانت تشكل عبئا باهظا على الصليبيين ، لـــم يستطيعوا احتماله على الدوام ، لقلة الموارد المالية (٥) • ومن المرتزقة من كان من الاهالى الوطنيين ، ومنهم من جاء من الغرب الاوروبى الى الشام وقبل الخدمة كمأجور (٦) • وهناك فئة أخرى من الجند المرتزقة ، تشكلت من الفرنجة المستقرين بالشام ، والدليل على ذلك أن والتر آفن Walter d'Avenes عند ارتحاله الى الغرب فى القرن الثالث عشر ، ترك وراءه اربعين فارسا ، بعد ان دفع لهم راتب سنة ، كما ان لويس التاسع خلف وراءه عند مغادرة الشـــام

---

(١) Ibid. P. 321

(٢) Ibid. P. 322

(٣) La Monte : Feudal Monarchy. PP. 160 - 161

(٤) Small : Crusading Warfare. P. 112

(٥) Ibid. P. 99

(٦) La Monte : op. cit. P. 160

عام ١٢٥٤ م مائة فارس (١) • على أن دفع رواتب الجند المأجورة يعتبر من المشاكل الخطيرة التى واجهت مملكة بيت المقدس ، بسبب ما تعرضت له فى كثير من الاحيان من الفقر وسوء الاحوال الاقتصادية ؛ وزخرت قوانين بيت المقدس بالاشارات الى حالات كثيرة توقف فيها السادة الاقطاعيون عن دفع مرتبات الجند (٢) •

ومما زاد فى قوة الجيش الصليبى بالشام أيضا ، ما جاء باستمرار من الغرب الاوروبى من صليبيين يجيش صدرهم بالتعصب الشديد ؛ وبالرغم أن ضررهم كان أكثر من نفعهم ، الا ان الفتوحات الصليبية كان من الصعب الابقاء عليها من غيرهم (٣) •

وفى الحرب كان فرسان المسلمين يهاجمون من على ظهور خيولهم ، وفى أيديهم الرماح ، وتميزت الخيول التى استخدموها فى القتال بصغر حجمها عن خيول الفرنجة ، كما أن الدروع التى يرتدوها كانت خفيفة (٤) • وقد تعلم الفرنجة من المسلمين مبدأ خفة الحركة فى القتال ، فالخيالة الثقيلة التى استخدمها الصليبيون ، اذا لم يساندها مشاة منظمين خاصة رماة الاسهم ، فانها تصير عديمة الجدوى فى الحرب ضد المسلمين المسلحين تسليحا خفيفا(٥) والحقيقة أن الفارس المسلم تميز بخفته فى المعركة ، فاذا تحرك وهو على فرسه فى المعركة ، مسيطرا على فرسه ، سريع الالتفاف ، يحس بمواطن الخطر فى حينها عند طلبه لعدوه اما مواجهة او محاذاة له (٦) • والسلاح الرئيسى الذى استخدمه المسلمون كان القوس ، ولكنهم حملوا أيضا الدرع والحربة والسيف

---

(١) Ibid. P. 161

العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٧ •

(٢) العرينى : نفس المرجع والصفحة •

(٣) Carl Stephenson : Mediaeval History. P. 717

(٤) Duggan : The Story of the Crusades. P. 71

(٥) Hayes, Baldwin : Hist. of Europe. P. 235

(٦) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ٣٨ أ ،
بدر الدين الرماح : علم الفروسية (غير مرقم الصفحات)

والهراوة (١) • واستغل المسلمون مقدرتهم على التحرك السريع فى تطويق العدو والالتفاف حوله كما يفعل النحل بالضبط واذا لم يتمكنوا من ذلك ، فانهم كانوا يتفادونه ومن المؤكد ان هذا التكتيك يحتاج الى تفوق عددى ، بيد أنهم حرصوا على استخدامه دوما مهما قل عدد المحاربين (٢) • حتى فى حالة التقهقر ، فان رماة السهام كانوا قادرين على أن يلتفوا الى الخلف بغته ، من فوق صهوات خيولهم ، يصوبوا سهامهم تجاه مقتفى أثرهم من العدو (٣)•

ويفضل المسلمون خوض المعارك ضد العدو فى فصل الربيع ، لاعتدال مناخه ، بعكس الشتاء الذى يشـــــتد فيه هطول الامطار ، الامر الذى يبعث الملل والضجر فى نفوس العسكر من ناحية ، وحدوث الاوحال التى تعوق السير من ناحية أخرى (٤) • وتفاءل المسلمون بلقاء العدو يوم الجمعة عند الصلاة « تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر » (٥) • وجرت العادة أن تبدأ المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين فى الصباح الباكر ، وتنتهى عند المساء ، وان كان البعض يفضل ان تدور المعركة ليلا ، كى يتيسر للمحاربين الهرب تحت جنح الظلام فى حالة التقهقر • وقبل بداية المعركة ، كانت الاوامر تعطى بدق الطبول ثم النفخ فى البوق ، ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الاعداء ، وعند الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند اهبتهم بخيولهم واسلحتهم ، وعند الضربة الثالثة يمتطون صهوة جيادهم ، ثم ينتظرون بقية الاوامر الصادرة اليهم (٦) • والجدير بالذكر هنا أن التكبير بصوت عال وأصوات الطبول من الصفات الحربية عند المسلمين ، التى افزعت الفرنجـــة وحازت اعجابهم فى آن واحد (٧) •

---

(١) Shall : op. cit. P. 77

(٢) Small : op. cit. PP. 78 - 80

(٣) Ibid. P. 80

(٤) عماد الدين الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٨٥ ، محمد بن تقى الدين الايوبى : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ص ١١١ ـ ١١٢ •

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ص ١٧٤ •

(٦) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥٢ •

{3} Small : op. cit. P. 75

وقد نجح المسلمون فى استخدام عنصر المفاجأة فى حروبهم مع الصليبيين، فكثيرا ماخرج الصليبيون للاحتشاش والاحتطاب بعيدا عنخيامهمومعسكراتهم، وما أن يتيقن الفرسان العرب انهم فى غفلة عن احتمال شن هجوم عليهم ، حتى ينقضون عليهم فجأة ، فيقتلون ويأسرون (١) · وكثيرا ما خرج الفرسان الصليبيون أيضا بعيدا عن قلاعهم وحصونهم بغرض اللعب والمرح ، وبمجرد أن يصل الخبر الى الفرسان المسلمين ، حتى يخرجوا اليهم ، فينقضون عليهم قتلا وأسرا (٢) · والشواهد على ذلك عديدة ، من ذلك ماذكره أسامة بن منقذ أن الفرنجة نزلوا بشيزر ، وكان الماء بينهم وبين المسلمين زائدا لايمكن خوضه، فلما اطمأن الصليبيون الى ذلك ، ترجلوا عن خيولهم وتركوها ترعى وهم نائمون ، ولما فطن المسلمون بدورهم الى ذلك ، تجرد البعض منهم ، وسبحوا اليهم حاملين سيوفهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم ، وانتشر الصياح بين الفرنجة (٣) · واستخدم المسلمون طريقة التسلل الى خيام الصليبيين ومعسكراتهم تحت جنح الظلام · فيفاجئون البعض منهمراقدا فى خيمته والسكون منتشرا ، ويضعون السكين أو الخنجر على حلق الرجل وهو نائم · ثم يوقظونه ، ويقولون له بالاشارة ان الموت سيكون من نصيبه اذا رفع صوته او استغاث ويخرجون به الى معسكر المسلمين ، وجرى ذلك مرارا كثيرة (٤) · وقد عرف اولئك الرجال الذين يدخلون معسكرات الصليبيين بخلسة فى المصادر المعاصرة بلصوص المسلمين أو حرامية المسلمين· واطلق علىالفرنجة الذين يغيرون على خيام المسلمين للنهب والسلب ، بلصوص الفرنجة أو حرامية الفرنجة · وكثيرا ما كان حرامية المسلمين يخرجون طلبا لحراميه الفرنجه ! (٥) ·

وجرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف الغرض منها الوقوف على حجم جيش العدو ، والتعرف على تحركاته ؛ وتعرف حركة الاستكشاف

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ·
(٢) ابن منكلى : المرجع السابق ، ورقة ٢١ ب ·
(٣) اسامه بن منقذ : كتاب العصا ، ص ١٩٧ ـ ص ١٩٨ ·
(٤) أبو شامه : الروضتين ، ج٢ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٦ ·
(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٨٨ ـ ص ٦٨٩ ،
ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٣ ·

فى مصطلح الدولة الايوبية باليزك ، وهى تعنى طلائع الجيش ، وهى شبيهة بالاستطلاع فى الحروب الحديثة ، وقد يعهد الى اليزك مهمة مناوشة العدو لاستدراجه الى معسكر المسلمين (١) ٠

واتخذ المسلمون عدة وسائل موفقة ، لنقل الاخبار بين فرق جيوشهم ، مثل وسائل البريد المعروفة على زمن الحروب الصليبية ، فضلا عن الجاسوسية، وهى ما تشبه المخابرات الحربية فى العصر الحديث ٠ والواقع أن الفضل يرجع الى نور الدين محمود فى اتخاذه الحمام الهوادى لنقل الاخبار بالشام سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، اذ رتب فى كل ثغر رجالا ومعهم الحمام ، بحيث اذا اقترب الفرنجة من أحد الثغور ، اتاه الخبر ليومه (٢) ٠ وبنى أيضا الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنجة ورتب لها من يحفظها ، ومعهم الحمام الزاجل ، فاذا رأوا العدو على مقربة ارسلوا الطيور ، فيأخذ الناس حذرهم ٠ ومن الذين اهتموا بالبريد السلطان الظاهر بيبرس ، فقد حرص أن يشرف اشرافا دقيقا على مختلف اجزاء دولته من جهة ، ومراقبة أعدائه من المغول والصليبيين من جهة أخرى ، وفى عهده اضحت قلعة الجبل فى مصر مركزا لشبكة ضخمة من طرق البريد (٣) ٠

ومن وسائل الاتصال فى ذلك الحين ، استخدام امهر السباحين الذين يخترقون الحصار البحرى للعدو سباحة ، وعلى ظهورهم الكتب ونفقات الاجناد، ويعومون بالكتب المدونة بترجمة مصطلح عليها ، أى مكتوبة بالشفرة ، خوفا من وقوعها فى أيدى الاعداء (٤) ٠ وعندما تعذر الاتصال بين حامية مدينة عكا وصلاح الدين الايوبى عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، انفذ اليهم عيسى العوام ، وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها ألف الف دينار ، فعام فى البحر ثم انقطعت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٣ ، ص ٤٨ ٠
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥١ ــ ص ٥٢ ٠
(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٩ ،
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٥٢ ٠
(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٢٧ ــ ص ١٣٨ ٠
(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٧٦ ــ ص ١٧٧ ٠
أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ٠

أخباره ، ذلك انه اذا دخل البلد ، يصل طائر يعلن عن وصوله ، فأبطأ الطائر ، فاستشعر صلاح الدين هلاكه ، وساورته الظنون ، وبعد ايام وجد عيسى العوام ميتا غريقا على طرف البحر ، وعلى وسطه اكياس النقود (١) • كذلك استخدم المسلمون فى حروبهم التراسل بالنيران من على مسافات بعيدة ، وذلك بايقاد النار ليلا ، واثارة الدخان نهارا (٢) • وأخيرا اذا ضاق الحصار بالمسلمين ، فانهم ــ احيانا ــ كانوا يحركون الاعلام والرايات بطريقة ما متفق عليها ، ليراها المراقبون من بعد (٣) •

أما عن التجسس فى الحروب ، وهو ما نطلق عليه فى العصر الحديث المخابرات الحربية ، فقد مارس المسلمون اعماله بشكل يبعث على الدهشة ، ويكاد أن يكون صورة مطابقة مما يجرى حاليا • فقد استعان صلاح الدين الايوبى بالجواسيس (المخبرين) والمستأمنين من الصليبيين فى امداده بأدق التفاصيل عن حالة الجيش ، وامكانياته المادية والمعنوية • واعتمد عليهم أيضا فى صحة الاخبار من عدمها ، فبينما كان واقفا بالقرب من بانياس عام ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) ، شاهد الابقار والاغنام جافلة ، واتى له أحد الرعاة وأخبره أنه شاهد الصليبيين ، ولكن السلطان استبعد ذلك قائلا : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، وبينما هو كذلك ورد له من أكد صحة الخبر (٤) • وتزخر المصادر المعاصرة بالحديث عن المستأمنين من الصليبيين الذين استعان بهم الايوبيون فى رصد تحركات الجيوش الصليبية، بل النساء استخدمن فى أعمال الجاسوسية لصالح الجيش الاسلامى ، فسبيلا وهى امرأة فرنجية ، كانت جاسوسة تتقاضى دخلا من صلاح الدين ، مقابل ما تعطيه من معلومات عن قوة جيوش الفرنجة وتحركاتها (٥) • وكان للملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب فى عكا « اصحاب أخبار واكثرهم

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٠٩ •
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ١٤ ، ص ٢٩٨ •
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ •
(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٥ ، ص ٢٣٠ ،
محمد بن تقى الدين الايوبى : مضمار الحقائق ، ص ١٦ •
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ •
رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٤ •

نساء الخيالة ، فكانت طاقاتهم فى قبالة الكرمل ، فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة فارس اوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون حوران أو ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق ، وكان يعطى النساء فى كل فتح جملة كثيرة (١) ٠ »

واذا كانت تحركات الجيوش الصليبية تصل الى المسلمين بواسطة الجواسيس والمستأمنين من الفرنجة ، فان اخبار المسلمين تصل ايضا الى بلاد الفرنجة بسرعة ٠ وقد برع الصليبيون فى التقاط الاخبار ، فكان اذا بلغهم حادث عن المسلمين ، يغيرون خططهم الحربية ؛ ومن الطبيعى انهم استخدموا افرادا من الأرض وغيرهم من المقيمين وسط المسلمين ، وربما كان للمسلمين يد فى ذلك طمعا فى مال أو انتقاما من سلطان (٢) ٠

ويذكر المؤرخون أن عماد الدين زنكى كان لايسمح لاى رسول ملك أن يعبر أراضى بلاده بغير أمره ، واذا استأذنه رسول فى العبور فى أراضى بلاده اذن له ، على شريطة أن يرسل اليه من يسير معه ، ولا يتركه يتصل بأحد من الرعية ، فكان الرسول يدخل البلاد ويخرج منها ولا يعلم عن أحوالها شيئا ، كما أنه اذا استغنى عن أحد من خدمه ، لايدعه يغادر بلاده خوفا من أن يدل على عورتها ويطمع العدو فيها (٣) ٠ والواقع أن خوف عماد الدين زنكى من أن يعرف العدو تجهيزاته ، هو ذاته التفكير الذى تأخذ به الجيوش الحديثة عن طريق الجاسوسية والمخابرات والطابور الخامس ٠

واذا اقترب فرد من حصن او معسكر للمسلمين ، كان عليه أن يذكر كلمة المرور وهى التى يقابلها فى التاريخ الحديث والمعاصر كلمة السر ٠ ولا أدل على ذلك من القصة الطريفة التى رواها أسامة بن منقذ ، ففى سروج أراد أن يدخل الحصن ، فرآه الديدبان (الحارس) فتصايحا :

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٦٢٢ هـ ٠

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ٠

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٤٦ ـ ص ٦٤٧ ٠

ـــ كلمة المرور ٠

ـــ أنا مؤيد الدولة ٠

ـــ معذرة يا سيدى ٠٠ كلمة المرور ٠

ـــ اذن أين الجماعة ؟

ـــ فى أقصى الوادى ٠

ـــ أى وادى ؟

ـــ ســـروج ٠

ويدهش أسامة من ذلك الحارس ، متهما أياه بالغباء ، لانه أخبره عن مكان الجماعة دون قصد منه ، وخاف من فرد اراد دخول الحصن ، فبتلك الطريقة ينفذ الى الافرنج خبايا المسلمين (١) ٠

أما عن طريقة الصليبيين فى الحروب ، لاسيما خلال احتدام المعركة ، فقد اعتمدت تماما على الفرسان الذين ألفوا القوة الرئيسية فى الدفـــاع والهجوم (٢) ٠ ومن الواضح ان الصليبيين لم يجيدوا أسلوب الكر والفر الذى اتبعه المسلمون فى معاركهم ، كما لم يعرفوا فن المراوغة الذى أجاده المسلمون، اذ ولابد أن يهاجمهم العدو وجها لوجه ، واذا حدث أن ناوشهم العدو ، فان خيولهم سرعان ما يصيبها الاعياء بسبب ماينؤ به الفارس من ثقل ٠ وعندما كانت تبدأ المعركة ، انهمك فيها الفارس الصليبى ، غير عابىء بغيره ، لأنه من الناحية الاجتماعية مساو لقائده ، الامر الذى يعطيه الحق فى أن يستخدم رأيه الخاص (٣) ، وتحركه الذى يراه ٠ ولمـــا كان على الفارس أن ينهض بأعباء نفسه ، ويجهز مستلزماته ، فقد أحضر معه عددا من الخدم والسواس للعناية بأسلحته وخيوله ؛ ومع أن هؤلاء الرجال كانوا قليلى الفائدة فى المعركة ، الا أنه كان لاغنى للفارس عنهم (٤) ٠ ومن الملاحظ أن الصـــليبيين

---

(١) أحمد كمال زكى : اسامة بن منقذ ، ص ٤٨ ـ ص ٤٩ ٠

(٢) Chalandon : op. cit. P. 324

(٣) Duggan : op. cit. P. 39

(٤) Ibid. P. 39

استفادوا خلال اللقاء الحربى مع المسلمين ، وخرجوا بتجارب جديدة عليهم • فعندما اشتبك الصليبيون الأوائل فى معارك مع العرب والاتراك ، أدركوا أن خيالة الاخيرين أخف حركة من خيالتهم ، كما أنها كانت ـ قبل بداية المعركة ـ تلقى الاضطرابات والفزع فى صفوفهم بغطاء من السهام ، مما سبب لهم أضرارا بالغـــة (١) •

والحقيقة أن الصليبيين لم تكن لديهم خبرة أو معرفة بوسائل القتال عند المسلمين • فأثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، فى اليوم الثالث من مغادرة نيقيه (٩ يوليو ١٠٩٧ م) ، قام الاتراك بهجوم مفاجىء مريع ، وهـــم يصرون على أسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية ، ويرددون بصوت عال ـ وصفوه بأنه شيطانى ـ نداء الله أكبر ••• الله أكبر (٢) • ونتيجة لذلك اعترف الصليبيون ببسالة الاتراك فى الحروب ، واعتقدوا انه كان من الممكن الا يدانيهم قوم فى بسالتهم ، لو تأتى لهم الايمان بالديانة المسيحية (٣) ومن المسلمين من أثنى على شجاعة الصليبيين ، مثل اسامة بن منقذ الذى شهد بأنهم يتميزون بفضيلة الشجاعة والقتال فقط (٤) •

ولم يهتم فرسان الطوائف الدينية العسكرية بمظهرهم ، فقد ترفعوا عن ارتداء الملابس الأنيقة ، ونادرا ما كانوا يغتسلون ، لايمشطون شـــعر رءوسهم تراهم أشعثين مغبرين ، اكتسبت بشرتهم لونا داكنا بسبب ثقل اسلحتهم وحرارة الشمس ، ولم تكن اسرجة خيولهم مزخرفة بأية زينة ، لأن كل تفكيرهم انحصر فى المعارك ، والأمل فى احراز النصر (٥) •

ونظرا لما كانت تعانيه مملكة بيت المقدس الصليبية من نقص شديد فى القوة البشرية ، طوال مدة تواجدها فى الشام ، فقد أدى ذلك الى انخراط

---

(١) Chalandon : op. cit. P. 324

(٢) Gesta Francorum, P. 18

(٣) Gesta Francorum, PP. 20 - 21

(٤) أسامه بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٢ •

(٥) Fedden : Crusader Casules. P. 34

النساء الصليبيات فى صفوف القتال الى جانب الرجال ، وهن فى أردية الفوارس • ولم يتبين المسلمون حقيقتهن الا بعد ان وقع البعض منهن فى الاسر ، وتعرض للعرى والتفتيش (١) •

ومن المعروف ان الخيل لعب دورا هاما طوال فترة العصور الوسطى فى زمن السلم والحرب معا • ولم يكن فى الامكان استخدام أى فرس للقتال، لأن فرس الحرب يختلف عن الفرس العادى • فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك ، ولهذا كان غالى الثمن ، من الصعب استبداله ؛ ومن أهم الصفات التى تميز بها فرس الحرب سرعة اندفاعه فى الهجوم ، اذا لمست أصابع الفارس سيور اللجام لمسا خفيفا من خلف درعه ؛ وفى العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته ، على الرغم مما كان يسببه من ازعاج فى المعركة (٢) • ومن الامور التى كانت تعيب الفارس ، أن يعتلى صهوة جواد غير مدرب على الاساليب الحربية (٣) • وكما نعلم ذاع صيت الأتراك السلاجقة كرعاة للخيل ، واحتفظ كل منهم بمجموعة من الخيول مع نسائه وأولاده على مقربة من مكان المعركة ، حتى يكون فى استطاعة فارس ما ان يتراجع أو ينسحب مؤقتا من المعركة ، لاستبدال فرسه بآخر اكثر نشاطا • ومن أجل هذا كان الجيش التركى يزخر بالحركة والجرى المستمر ، فى الوقت الذى كان فيه الفرسان الفرنجة ينهكون خيولهم الحربية (٤) • وقد فطن نور الدين محمود الى ضرورة تدريب الخيل ،بمزاولة لعبة الكرة التى كان مولعا بها ، كى يدمن الجواد اسلوب الكر والفر (٥)•

ومن البديهى أن رداء الفارس وعدته ، أضافا عنصرا هاما فى اثبات كفاءة

---

(١) أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٨ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ ،
مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ ١ ص ٣٦٢ •

(٢) Duggan : op. cit. P. 39

(٣) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ١٧ ١ •

(٤) Duggan : op. cit. PK 41

(٥) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٦١٠ •

الفرس فى القتال • وقد اشرنا من قبل الى ان الفرسان المسلمين تخففوا فى ملابسهم ، مما ادى الى تحمل الفرس « قوة المشوار » ، والعدو مسافات طويلة (١) ، وسهولة تحركة فى خفة ورشاقة • والقوس أهم سلاح حارب الأتراك به ، وهو مصنوع من قرنين لظبى على شكل « قوس كيوبيد » ، والى جانب ذلك ، سيف وحيد الحد ، أعقف قليلا ، استخدمه المحارب التركى عند الالتحام مع العدو ؛ هذا ولم يحدث أن ارتدى ذلك المحارب زردية معدنية كما فعل المحارب الصليبى (٢) •

أما الفارس الصليبى ، فقد كان على صهوة فرسه لايزيد عن الخبب والنقل ، اذا أفلت خصمه لاتابعه ، ولايلج فى طلبه (٣)، ومرجع ذلك الى ثقل عدته التى تعوق حركة فرسه • وقد اعطانا مطرز بايو Bayeux Tapestry وأنشودة رولان ، قسطا وافرا من المعلومات عن التجهيزات الحربية للفارس الأوروبى فى القرن الحادى عشر ، وهى التى ظهرت أيضا فى الحملة الصليبية الأولى (٤) • ففى الجزء الاعلى من جسم الفارس المحارب ، الفيناه مرتديا صدرة مزردة Hauberk بلا أكمام ، تتألف من حلقات معدنية مركبة على أرضية من الجلد ، روعى فيها أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها ــ من أمام وخلف ــ حتى لاتعوق الفارس عن امتطاء فرسه (٥) • وكان الفارس يضع على رأسه خوذة حديدية مخروطة الشكل من الصلب ، لها قضيب معدنى عمودى فى المقدمة ، يمتد الى أسفل لحمايته من ضربات سيف خصمه (٦) • وقد تطورت تلك الخوذة التى ظهرت فى مطرز بايو الى أخرى أسطوانية الشكل ذات حجم اكبر ، تغطى كل الرأس والوجه ، ولاتترك الا فتحة أو فتحتين

---

(١) بدر الدين الرماح : علم الفروسية (مخطوط غير مرقم الصفحات) •

(٢) Duggan : op. cit. PP. 41 - 42

(٣) أسامه بن منقذ : كتاب العصا ، ص ١٩٩ •

(٤) Archer : The Crusades. P. 354

(٥) Duggan : op. cit. P. 38

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٦٦ •

(٦) Archer : op cit. pp. 355 - 356

ـ عندما يكون مقدمها مدلى الى أسفل ـ للرؤية والتنفيس ، غير أن عيبها يكمن فى استحالة معرفة الصديق من العدو خلال المعركة (١) · والقليل من الفرسان ارتدى سروالا قصيرا مزردا له مقعدة من القماش ، تجعل الفارس فى وضع مريح على السرج ، بيد أن الغالبية ارتدت سراويل مبطنة (محشوة) تنتهى حتى الكاحل ، وبها مهاميز حادة طويلة (٢) · ومن فوق كتف الفارس الايمن يتدلى نطاق ، معلق به درع يأخذ ـ غالبا ـ شكل الطائرة الورقية ، واحيانا شكل مستطيل أو دائرة ، مصنوع من خشب الزيزفون أو الدردار المغطى بالجلـــد ، له مقبض بارز فى الوســـط ، ويبلغ طوله أربعـــة أقدام تقريبا (٣) · وبسبب ثقل الدرع ، لايستطيع الفارس تحريكه فى سهولة ، فى وقت ينبغى أن تكون يده اليسرى مشغولة بسيور لجام الفرس · وعلى أية حال ، متى كان الدرع فى وضعه الصحيح ، فانه يقوم بتغطية الفارس من رقبته حتى ركبة الساق اليسرى ؛ وربما نقش على الدرع تصميما زخرفيا ، لان الشعارات الحقيقية على الدروع لم تكن قد اتخذت بعد (٤) ·

ومن الواضح أن الرداء السابق دفاعى ، الغرض منه حمـــاية الفارس وصيانة جسده ، ومن ثم كان لابد أن يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومة (٥) · وأهم تلك الاســـلحة السيف والحربة والبلطة · والسيف لم يكن له طول ثابت ، فاحيانا يتراوح فى الطول بين ثلاثة وأربعة أقدام ، وأحيانا أخرى بين قدمين وثلاثة ، وهو ذو حافتين، مثبت فى قراب على الجانب الايسر من المحارب (٦) · أما الحـــربة فكانت مصنوعة من خشب الدردار أو التفاح ذات رأس مستدق يأخذ شكل ورقـة

---

(١) Duggan : op. cit. P. 38

(٢) Ibid. Loc. cit & Archer : op. cit. PP. 356 - 357

(٣) Archer : op. cit. P. 357

(٤) Duggan : op. cit. P. 38

(٥) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٦٦ ·

(٦) Archer : The Crusades. P. 357
Duggan : op. cit. PP. 38 - 39

الشجر أو مكعب ، ويبلغ طولها ثمانية أقدام (١) . وأخيرا البلطة التى كانت سلاحا هجوميا ضئيل القيمة فى الحروب الصليبية ؛ ومن الذين حملوا البلطة جنود شيخ الجبل زعيم الحشاشين كما ذكر جوانفيل (٢) .

وقد أتى الفرنجة الى الشام بالقذاف أو القوس القذوف — Balista arbalest-une arbalete الذى استخدم فى الحملة الصليبية الأولى ، ويتميز بدقته ، وهو عبارة عن قوس ونشاب ضخمين ، له القدرة على اطلاق سهام حديدية قصيرة ، تبلغ فى سمكها أربعة أضعاف السهام العادية ، ولا تستطيع الدروع مقاومة الاسهم التى تنطلق منه ، لما لها من قوة اختراق . وقد أشارت أنا كومنينا لهذا السلاح بأنه « اداة شيطانية بكل ما فى تلك الكلمة من معنى » ، كما أنه كان السلاح المفضل لريتشارد قلب الأسد ؛ وبسبب فعاليته لم يتمكن صلاح الدين الايوبى من الاستيلاء على طرسوس عام ١١٨٨ م (٣).

وعلى الرغم من حرص الفارس الصليبى على وقاية نفسه ، « من لبسه الزردى من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد » ، فان فرسه كان هدفا طيبا لسهام المسلمين ، واذا حدث أن هلك ، انهارت قوة الفارس (٤) . والجدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن اصابة خيول الفرسان الصليبيين أو هلاكها أو استيلاء المسلمين عليها، كان يحتم على ملوك بيت المقدس أن يتحملوا تبعية تعويضها، وهذا هو المعروف بنظام التعويض restor الذى يعتبر من أهم خصائص النظام الحربى عند الصليبيين (٥) . وشبيه بذلك النظام ما كان متبعا خلال حكم سلاطين المماليك ، فقد كانت الخيول السلطانية تفرق على المماليك

---

(١) Archer : op. cit. P. 357

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit. & Fedden : op. cit. P. 39

(٤) أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ،
العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٢ .

(٥) العرينى : المرجع السابق ، ص ١٢ ــ ص ١٣ .

السلطانية ومقدمى الحلقة ، فمن نفق له فرس من المماليك ، يحضر بقطعة من لحمه ، ويأتى بشهود ، فيعطى بدله (١) ٠

واللياقة البدنية كانت ضرورية للجند ابان الحروب الصليبية ، فهى تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط ٠ ومن أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين لعبة الكرة ، تلك اللعبة التى كان يميل اليها نور الدين محمود ، فضلا عن براعته فيها ، واجادته لها على ظهر فرسه (٢) ٠ وقد كان فى ممارسة تلك اللعبة وامثالها ، رياضة للخيل والجند معا ، وتدريب للجند على الصبر وتحمل المشاق فى الحروب من جهة ، وتمرين لهم على اصابة الهدف من جهة أخرى (٣) ٠ واتضح بعد نظر نور الدين محمود ، عندما رأى أن حياة الجيوش لاتقتصر على الحرب فحسب ، حتى لاتصير مشقة لايطيقها الجنود ، بل لابد أن يتخللها فترات من الراحة يقوم فيها الجنود ببعض التمرينات الرياضية ، وهو فى ذلك يقول : « ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شـــتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها ، صارت حماما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب ٠٠٠ (٤) » ٠ ومن فوائد تلك اللعبة الرياضية ، ملء النفس بالفرح والسرور عند الفوز والاحساس بلذته، ونشر روح التعاون بين الاصحاب (٥) ، لانها لعبة جماعية ، بعيدة عنروح الفردية والانانية ٠ وأخيرا فانها كانت نوعا من عبادة الله ، والتقرب اليه ، وتقوية للجند الذين عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله ، باجسام قوية ، وأخلاق سامية (٦) ٠ وقد اشاد أسامة بن منقذ بفضل هواية الصيد فى تربية فتيان المسلمين ، واعدادهم للجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين ٠ وفى عهد صلاح الدين الايوبى ، اضحت هواية الصيد رياضة محببة ، فيها الكثير من أعمال

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ٠
(٢) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ ٠
(٣) عبد اللطيف حمزه : ادب الحروب الصليبية ، ص ٢٣٨ ٠
(٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٤ ــ ص ١٦٥ ٠
(٥) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٢٨ ــ ص ١٢٩ ٠
(٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ ،
عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ــ ص ٢٣٩ ٠

الحركة ، وانبعاث للتفكير السليم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن (١) ٠

أما عن التربية الاجتماعية فى المعسكر الاسلامى ، فقد حرص صلاح الدين الايوبى ـ كقائد عسكرى ـ على أن تسود روح المودة والسرور بين جنده ، ودأب على معاملتهم باحترام ، باسطا لهم افخر الثياب ، مقدما لهم أطيب التحف ، صانعا لهم اشهى الاطعمة ، وفى الليل يعرض عليهم التسلية البريئة كالرقص والغناء والضرب على الدفوف والطبول والزمامير (٢) ٠ وتدعيما للقوى الروحية ، وحرصا من القائد على مصلحة جنده ، فقد منع أى شخص من التعرض لنساء الاجناد ، وفى ذلك يقول عماد الدين زنكى : « ان جندى لايفارقونى فى اسفارى ، وما يقيمون عند أهليهم ، فان نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن (٣) » ٠

وثمة نوع من الترويح عن الجنود الفرنجة ، استنكره المعاصرون من المسلمين ، ورأوا فيه ضربا من الانحراف والخروج عن جادة الصواب ، لمخالفته الواضحة للشريعة الاسلامية ٠ ففى عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) وصلت سفينة الى ميناء عكا على ظهرها ثلاثمائة امرأة فرنجية على قسط وافر من الحسن والجمال ، وذلك بقصد الترفيه عن الجنود ، خاصة العزبان منهم ؛ أما العجائز من النساء ، فكان دورهن الغناء والانشاد لتحريض الرجال على الحرب ، وبعث الشجاعة فيهم (٤) ٠

والروح المعنوية من مبادىء الحرب التى لاغنى عنها لاحراز النصر ، فبفضلها امكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن

---

(١) الاعتبار ، ص ١٩٦ ،
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ ٠
(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ ٠
(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٨٤ ٠
(٤) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ،
العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٦٩ ـ ص ١٧١ ،
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ،

الهزيمة • ولا يغيب عن البال فى هذا الشأن ، موقف الجيوش الصليبيـــة والجيوش الاسلامية اثناء الحروب الصليبية • فالاولى تسعى للفتح والقهر والاستيلاء ، والثانية تدافع عن حقها فى حياة حرة كريمة ، وتطهير ارضها من المحتل الغاصب •

ولا شك أن الخطبة الدينية التى يقصد بها اثارة الشـــعور الدينى للمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تسمع فى صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وفى أوقات الفتوح الكبرى ، وأوقات المحن القاسية التى كان يتعرض لها المسلمون عقب أى هجوم للفرنجة ، ودخولهم مدينة هامة من مدن الاسلام فى مصر أو الشام (١) • فكثيرا ما تولى أئمة المسلمين تحريض الجموع على قتال الكافرين (الصليبيين) ، فضلا عن نقد بعض ملوك المسلمين الذين قصروا فى الحرب ، أو تساهلوا مع الفرنج ، كما حدث ذلك عند التنديد بالملك الكامل الايوبى فى اعطائه القدس للامبراطور فردريك الثانى (٢) • ومن امثلة الوعظ الدينى التى كانت تبدو كجزء من برامج الدعاية السياسية ، واثـارة الحمية الاسلامية ابان الحروب الصليبية ، ما فعله سبط بن الجوزى ، فقـد ذكر للناس بجامع دمشق ، أن امرأة ارسلت له شعرها لتجعله قيدا للخيل فى سبيل الله ؛ ولما سمع الناس ما فعلته المرأة ، قطعوا شعرهم وصـــاحوا طالبين الجهاد فى سبيل الله (٣) • وكان المسلمون اذا لمسوا تهاونا من الحكام المسلمين ، بصدد الجهاد ضد المسلمين ، اجتمعوا ومعهم رجال الدين ، وتوجهوا الى المساجد لاعلان احتجاجهم ، كى تصل صرخاتهم الى الحكام • ففى أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) سار جماعة من أهل حلب ومعهم الفقهاء والصوفية الى جامع السلطان ببغداد لطلب الجهاد ، ومنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم ، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر للجهاد، ثم قصدوا فى الجمعة التالية جامع الخليفة وهم يبكون ويستغيثون ، واحدثوا فوضى فى الجامع ، فبطلت الجمعة ، ووصل الخبر الى الخليفة ، فأرسل بدوره

---

(١) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ •

(٢) نفس المكان •

(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٩١١ •

الى السلطان الذى أمر الامراء بالاعداد للجهاد (١) • ولم يكتف رجال الدين بحث الحكام والرعية من المسلمين على قتال الفرنجة ، بل منهم من قرن القول بالعمل ، ضاربا بذلك أسمى وأروع مثال للتضحية • من ذلك ما حدث فى عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) ، عندما حاصر الفرنجة دمشق ، فخرج اليهم الاهالى والعسكر لقتالهم ، وفيمن خرج للقتال الفقيه يوسف الفندلاوى على الرغم من كبر سنه ، فلما رآه معين الدين أنر اشفق عليه ، وطلب منه العودة، ولكنه أجابه « قد بعث واشترى منى » ، وهو يقصد بذلك قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (٢)) • وتقدم للقتال حتى استشهد (٣) •

هذا من ناحية المسلمين ، أما من ناحية الصليبيين ، فعندما كان اليأس يبدأ يخيم على وجوههم ، ويترك انطباعا مؤثرا فى قلوبهم ، فانهم يلجأون الى رفع الروح المعنوية للجنود ، بأسلوب مغاير لأسلوب المسلمين ، وذلك باختلاق المعجزات والرؤى والأحلام التى يظهر فيها السيد المسيح عليه السلام • ففى أثناء حصار الترك لأنطاكية فى المدة من ٥ يونيو الى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م ، بلغ من ضيق الحصار ، أن اضطر الفرنجة لأكل الخيول والحمير ، أتى احد القسس لزعماء الفرنجة ، وأخبرهم أنه رأى فى منامه السيد المسيح عليه السلام ووالدته السيدة مريم ، ومعهم بطرس سيد الحواريين ، واقترب منه المسيح وسأله اذا كان يعرفه ، ولما رد بالنفى ، عرفه بنفسه ، ووعده بالمساعدة ، فضلا عن احراز النصر على المسلمين (٤) • ومن الرؤى التى أحدثت دويا هائلا بين صفوف المسلمين ، رؤية أحد الحجاج الصليبيين واسمه بطرس خلال حصار الترك لأنطاكية ، فقد تراءى له

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٣ •
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثانى ، المجلد الخامس ، ص ٤١١ ـ ص ٤١٢ •
(٢) سورة التوبة ، آية رقم ١١١ •
(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٤٣ ،
أسامه بن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٤ ،
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٧ ـ ص ١٩٩ •
(٤) Gesta Francorum, pp. 57—58.

القديس اندراوس ، ودله على الحربة التى طعن بها السيد المسيح حين رفع على خشبة الصليب ، كما تبدى له خلال حصار كربوغا للصليبيين بأنطاكية (١٠ يونيو ١٠٩٨ م) ، وأخبره بانه سينتصر على اعدائه (المسلمين) (١) ٠ ولقد عزا الصليبيون هذا النصر الى قدرة فوق طاقة البشر ، حيث أبصر البعض كتيبة تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور ، تقدمت الصفوف ، وتسلقت السلالم والأسوار ، ورمت فأصابت ، وهذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم (٢) ٠

ولكن تعبئة الروح المعنوية والشعور الدينى أخذت طابعا أخرا عند الصليبيين الغرض منه اثارة الغرب الاوروبى ، فى الوقت الذى اشتد فيه ضغط المسلمين على الصليبيين ٠ فعقب الانتصارات التى حققها صلاح الدين الايوبى ، وانتهت باستيلاء المسلمين على بيت المقدس ، أرسل الفرنجة عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) الرسل الى الغرب يطلبون ارسال نجدات ٠ ولكى يثيروا المشاعر ، رسموا صورة للمسيح ، والى جانبه رجل عربى يضربه ، وجعلوا الدماء تسيل على وجه المسيح ، وادعوا أن الرجل العربى الذى يضرب المسيح هو نبى المسلمين (محمد صلى الله عليه وسلم) ، مما ادى الى مجىء الحشود الهائلة من الغرب الاوروبى ، بهدف استنقاذ بيت المقدس من المسلمين (٣) ٠ وفى عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، حدث أن رسم صاحب صور صورة أظهر فيها قبر المسيح ، وعليه فارس مسلم يمتطى صهوة فرس ، وقد بال الفرس على القبر (٤) ٠ وبالطبع آذت تلك الصورة مشاعر المسيحيين وقتئذ الى حد بعيد ، ومن المؤكد أن العديد منهم انخدع بها ، خاصة اذا علمنا أن العصور الوسطى هى عصور الايمان ٠ وما فعله الصليبيون خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من دعاية سياسية مخالفة للحقيقة ، فعله الصهاينة

---

(١) 1. Gesta Francorum, pp. 59—60.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٦٢ ـ ص ٦٣ ٠

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٥ هـ ،
ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ج ١ ، ورقة ٢٩ ٠

(٤) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ٠

فى نزاعهم مع العرب فى القرن العشرين ، عندما سلبوا فلسطين ، وامطروا العالم بدعايتهم المسمومة ٠

وعلى الرغم من الروح العدائية التى سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، فان المجال انفتح فى بعض الاحيان لاتصالات سلمية ، تتخللها روح المودة والتآلف ، خاصة بعد انقضاء السنوات الاولى من الوجود الصليبى بالشام ٠ فقد اختلفت الروح المتبادلة بين الفريقين فى نهاية القرن الثانى عشر ، عما كان عليه الوضع عندما اتت الحملة الصليبية الاولى (١) ٠ ويتضح ذلك مما يرويه أبو شامه من أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال بعد ساعة (٢) ٠ ولم يقتصر الأمر على الكبار ، بل تعداه الى الصغار ، فأمام عكا عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) ، صار صبيان من المسلمين ، يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين ، واستطاع أحد صبيان المسلمين أن يضرب صبيا من الصليبيين ويأسره ، فاسترده الصليبيون بدينارين (٣) ٠

وفى بعض الأحيان ترجع فترات الهدوء النسبى التى تخللت الحروب الصليبية الى عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين من جهة ، وتبادل المحادثات بين الفريقين من جهة أخرى ٠ واشتهر الصليبيون غالبا بنقض الهدنة باعتراف مؤرخيهم ، ففى فبراير ١١٥٧ م (ذى الحجة ٥٥١ هـ) ، نقض بلدوين الثالث الهدنة التى عقدها مع المسلمين من أجل الحصول على قطعان من الأغنام والماشية والخيل ، كانت تنتج بالقرب من بانياس ، الامر الذى أثار سخط نور الدين محمود (٤) ٠ ويبدو أن الملوك من الفرنجة كانوا لايحلفون على استقرار أمر هدنة ما ، أما عظماء الفرنجة أو كبار الامراء ، فلا غضاضة أن يقسموا اليمين على احترام أى هدنة تعقد بينهم وبين المسلمين ، فعندما جنح المسلمون والصليبيون الى المسالمة عام ١١٩٢ م

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٣١ ــ ص ٢٣٢ ٠

(٢) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ٠

(٣) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٤٦ ــ ص ١٤٧ ،
ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٠٨ ــ ص ١٠٩ ٠

(٤) William of Tyre : op. cit. Vol. pp. 255—256

(٥٨٨ هـ) ، وتحالفوا على احترام الهدنة ، لم يحلف ريتشارد قلب الاسد لرسل السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولكنهم « اخذوا يده وعاهدوه ، واعتقد بأن الملوك لايحلون » ، وحلف غيره من كبار الفرنجة ، كذلك وصل رسل الفرنجة الى السلطان ، واخذوا يده على الصلح ، واستحلفوا أولاده ، وأخاه وأكابر أمرائه (١) • واملا فى اكتساب الوقت لصالح كل من الفريقين ، استغرقت المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد ـ قبل الموافقة على الهدنة ـ وقتا طويلا (٢) •

واذا انتقل الباحث لدراسة الاسرى وشئونهم ، الفينا اختلافا واضحا بين سلوك المسلمين تجاه أسرى الصليبيين ، وسلوك الصليبيين تجاه أسرى المسلمين • فمن وقع فى الأسر من الصليبيين فى ايدى المسلمين ، يدون فى سجلات ديوان الاسرى اسمه وجنسيته ودياناته ، ويذكر ايضا من يتم الافراج عنه اما بمقتضى مرسوم ، واما بالهداية الى الدين الاسلامى (٣) • ومعاملة الاسرى على زمن الحروب الصليبية ، لم تعرف اتفاقيات دولية كاتفاقية جنيف مثلا الخاصة بمعاملة الأسرى ، أو أى هيئات دولية أخرى تشرف على منكوبى الحروب من الاسرى ، وانما ترك مصيرهم تحت رحمة الغزاة المنتصرين ، يتصرفون فيهم قتلا واسترقاقا ، وبيعا وشراء ، كيفما شاءوا (٤) • وتشير المصادر الى أن نور الدين محمود ، عندما وقع ملك الفرنجة فى أسره ، أشار عليه الامراء ببقائه فى أسره خوفا من شره ، ولكن نور الدين طلب منه ثلاثمائة الف دينار فى نظير ان يطلق سراحة ، فافتدى ملك الفرنجة نفسه ، وسلم المبلغ لنور الدين ، فبنى به مارستانا ومدرسة ، ودارا للحديث

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٨٢ ـ ص ٨٣ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ، ورقة ٣١ •

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٥٤ ،
Harold Lamb : The Crusades. p. 139.

(٣) الجزرى : تاريخ الجزرى ، ج ٢ ص ١١ ،
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٦٩ ـ ص ٧٠ •

(٤) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٦٧ ـ ص ٦٨ •

بدمشق (١) • وكان الحكام المسلمون والخيرون يفتدون أسرى المسلمين من الصليبيين ، طمعا فى ثواب الله وابتغاء لمرضاته ، وقد دأب أسامة بن منقذ على دفع مبالغ للصليبيين مقابل اطلاق سراحهم (٢) • ويتضح جليا انسانية صلاح الدين ومرؤته فى الاسلوب الذى عامل به الاسرى ، عقب سقوط بيت المقدس فى ايدى المسلمين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ؛ فلم تتعرض دار من الدور فى المدينة للنهب ، ولم يحل مكروه بأحد من الاشخاص (٣) • بل أخذ بالبيان كل ما فى بيت المال لدفع ما وعد به من اموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون الف دينار، ولم يخرج الاسبتارية عن شىء من اموالهم الا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك الابنفسه ،ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة بقامة منحنية لثقل مايحمله من الذهب• وقد كان من الجائز أن ينجو من الاسترقاق الوف عديدة من المسيحيين ،لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا اكثر سخاء • ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الاول من اولئك الذين افتدوا انفسهم ، والثانى من أولئك الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا الى الاسر ومن المناظر التى دعت للاسى ، ما حدث من التفات العادل الى أخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح الف اسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له فوهبهم له صلاح الدين • وجعل صلاح الدين للبطريرك سبعمائة اسير ليعتقهم ، كما جعل لبالیان خمسمائة اسير • ثم أعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز ، وبذل للارامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته (٤) • وما فعله صلاح الدين الايوبى يناقض تماما ما قام به

---

(١) النعيمى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦١١ ،
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣١١ •

(٢) الاعتبار ، ص ٨١ ــ ص ٨٢ •

(٣) Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. p. 230.

(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٤٣ ــ ص ٤٤ ،
ابو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٧٢ ــ ص ٧٣ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ ،
ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٣ ــ ص ٣٢٤ ،
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٧٥ ــ ص ٦٧٩ •

الصليبيون الغزاة فى الحملة الصليبية الاولى ، فعلى ايديهم بلغ عدد الضحايا نحوا من سبعين الفا (١) · ولكن صلاح الدين اتبع مع اسرى الاسبتار والداوية سياسة خاصة ، اقتضت قتل كل من يقع منهم فى الاسر ، سبب ذلك تنكر فرسان هاتين الطائفتين للمبادىء الانسانية التى كرسوا حياتهم من اجلها ، ولما عرف عنهم من التعصب الأعمى ، وسفك دماء المسلمين ، « ولانهم أشـــد شوكة من جميع الفرنج (٢) » ·

وطالما لقى الاسرى المسلمون فى المعسكر الصليبى العناء والمشقة ، ولا يجد الباحث وثيقة دامغة ابلغ مما دونه الرحالة ابن جبير ، بوصفه حال أسرى المسلمين قائلا : « ومن الفجائع التى يعانيها من حل بلادهم هم أسرى المسلمين يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، فى أسوقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطرلهم الأفئدة ، ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئا (٣) » وثمة تصرف قام به ريتشارد قلب الأسد ، دل على افتقاده روح الانسانية ، وبغضه للاسلام ، واعاد بذلك الى الأذهان السيرة السيئة لرينودى شاتيون (٤) · ويتضح هذا التصرف فى الاتفاق الذى عقد بينه وبين صلاح الدين الايوبى، وانتهى الى تبادل الاسرى، وارجاع الصليب الحقيقى ، وتعهد المسلمين بدفع غرامة حربية · ولكن ريتشارد ، فضلا عن أنه سلك طريق المماطلة والتسويف ، أنهى المفاوضات ، وأحضر زهاء ثلاثة آلاف اسير مسلم عزل أمام تل العياضية ، وذبحهم عن آخـــرهم فى ٢٠ اغسطس ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ، « وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم » وأين هذا من انسانية صلاح الدين وكرمه النبيل ، الذى خفف من كارثة حطين بالنسبة

---

(١) Gesta Francorum, p. 91.
فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ـ ص ٢٢٩ ·

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٢ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ ·

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٠ ·

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T. III p. 60.

للفرنجة ، بل حتى عندما سقط ريتشارد مريضا ، ارسل له صلاح الدين شرابا مثلجا ؛ تلك المآثر الكريمة ، رد عليها ملك انجلترا بمذبحة (١) ٠

ومن الملاحظ ندرة افتداء أسرى الصليبيين بالمال ، ومرجع ذلك فى الغالب الى أن اولئك الاسرى خليط من اجناس وشعوب أوروبية مختلفة ، لم تنصهر فى بوتقة واحدة ،بالاضافة الى تفكك الروابط الاسرية والقومية ، وانعدامها بين الاوروبيين (٢) ٠ كذلك اذا وقع فارس الاسبتارية او الداوية لم يكن تدفع له فدية ، اذا ما وقع فى الأسر ، وقد اتبع هذا التقليد فى بداية الوجود الصليبى بالشام ، ولكن ذلك الأمر لم يستمر ، تبعا لتغيير الظروف الخاصة بقوانين الهيئتين ؛ ومما يدل على ذلك أن وفدا من الداوية والاسبتارية ذهب الى سلطان مصر الصالح أيوب لتقديم فدية اسراهم (٣) ٠

وقد استخدم أسرى المسلمين والصليبيين ، ممن يتمتعون بأجسام قوية ـ على السواء ـ فى بناء العمائر الحربية (٤) ، وهى التى سنلقى الضوء عليها بالدراسة فى السطور القادمة ٠

***

(١) أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ،
Grousset : op. cit. T. III p. 61.

(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٨١ ـ ص ٨٢ ،

(٣) نبيله مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ص ١٦٨ ٠

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ،
فريد أبو حديد : تاريخ صلاح الدين وعمره ، ص ١١٠ ٠

ثانيا ـ العمارة الحربية :

استطاع الصليبيون فى بادىء الامر ، أن يحرزوا انتصارات على المسلمين، لكنها فى الواقع لم تبعث فى نفوسهم الثقة ، ولا التفاؤل بالمستقبل ، فضلا عن أنهم لم يطمئنوا الى مصيرهم وبقائهم فى الشرق الأدنى (١) · واذا نحن استثنينا الطرفين الشمالى والجنوبى للبقعة التى احتلها الصليبيون ، لوجدنا ان معظم البلاد التى استولوا عيها ، كانت تطل على الساحل ، أما البلاد الداخلية ، فقد ظلت فى أيدى اصحابها المسلمين ؛ وأيضا اذا كانت بعض المدن الداخلية الكبيرة مثل حلب ودمشق وحماه ، دفعت الجزية للصليبيين حينا بعد آخر ، الا انها لم تخضع لسيطرتهم قط (٢)! · حتى فى الامارات التى انشأها الصليبيون ـ الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ـ فانهم كانوا اقلية بالنسبة لسكانها ، وأضحت الجاليات اللاتينية كمراكز محصورة محاطة بالاعداء ، وناهيك بالنزاع الذى كان قائما بين تلك الامارات (٣) ·

ونظرة فاحصة الى بلاد الشام ، توضح لنا تناثر الحصون والقلاع بشكل يدعو الى الدهشة ، لا سيما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وأول عهد زاهر لتشييدها بدأ فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، زمن بلدوين الثانى (١١١٨ ـ ١١٣٠ م) ، واستمر زمن فولك أنجو (١١٣٠ ـ ١١٤٣ م) ؛وتمتد تلك القلاع بين جزيرة « الجربة » (جزيرة فرعون وتقع شمال خليج العقبة) وسلسلة جبال أمانوس شمالى الشام (٤) · وما بنى من قلاع وحصون خلال فترة الحروب الصليبية ، بلغ من ضخامة العدد ، مالم يبلغه من قبل سواء فى العصر الرومانى أو البيزنطى ، أو خلال الحكم العربى للشام (٥) ·

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٥ ·

(٢) نفس المكان ·

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٥٥ ـ ص ٣٥٦ ·

(٤) Deschamps : Le crac des Chevaliers. p. 44.

عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ ·

(٥) عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ ·

ولا شك أن الاوضاع الجغرافية للشام لها أثر كبير فى اختيار مواقع القلاع والحصون الكبيرة ، خاصة الاستراتيجية ؛ فنظرة الى خريطة الشام للاراضى التى تمتد بين صيدا وانطاكية ، يتبين لنا أهمية المواقع التى بنيت فوقهـــا تلك القلاع (١) • فجبال لبنان ترتفع ارتفاعا شاهقا مفاجئا ، يصل فى بعض الاحيان الى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين الى الشمال من لبنان ، على الرغم من أنه أقل ارتفاعا من جبال لبنان ، الا أنه وعر تماما (٢) • وعلى ذلك فقد رؤى ضرورة بناء القلاع من صيدا الى انطاكية ، عند الممرات القليلة التى تربط بين الساحل وداخلية البلاد ، فشيدت قلعة صهيون بحيث تغطى الطرف الشمالى من جبل العلويين ، والمرقب بنيت حيث تتجه سلسلة الجبال نحـو الساحل مكونة ممرا ضيقا بين الجبال والبحر ، وحصن الاكراد وصـــافيتا وعكار وغيرها من القلاع ، كل منها تسيطر على ثغرة حيوية بين أقصى الطرف الجنوبى لجبل العلويين أول استحكامات لبنان (٣) وعلى طول سلسلة جبال لبنان نفسها ، لم تكن هناك أى حاجة لبناء قلعة كبيرة ، فقلعـــة شقيف أرنـــون Belfort ، تحدد لنا نهاية تلك السلسلة ، وتقوم بحراسة الممر الذى يخرج منه نهر الليطانى متجها ناحية البحر (٤) •

أما فى الجنوب حيث توجد فلسطين ، فان الدفاعات الطبيعية لها أقـــل تأثيرا ، لذلك استدعت الحاجة تشييد قلاع كثيرة ؛ وكان هناك خط دفاع أول للدفاع عن الأرض شبه الصحراوية فى شرق الأردن ، فالصبيبة فى جنوب جبل الشيخ لكشف أى تقدم من جهة دمشق ، وحصـــن الكرك الذى شـــيد فى صحراء البتراء ، فقد هيأ موقعه السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربى شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ؛ والشوبك فى صحراء الاردن وشمال خليج العقبة (٥) • أما خط الدفاع الثانى فكان فى غرب نهر

---

(١) Feddan : Crusader Castles. p. 21.

(٢) Loc. cit.

(٣) Fedden : op. cit. pp. 21—22.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٥ •

(٤) Fedden : op. cit. p. 22.

(٥) Loc. cit.

رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ـ ص ٣٧١ •

الأردن ، ويرتكز على قلعتى تبنين Toron وصفد Saphet بالاضافة الى انه يشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من الاردن الأعلى الى صيدا وعكا ، وكوكب Belvoir ى تشرف على المخاضة الهامة الى الجنوب من طبرية (١)٠ والى أبعد نقطة جنوب وادى نهر الاردن نفسه والبحر الميت شيدت قـــلاع منيعة ؛ كذلك شيدت عثليت (قلعة الحاج (Chastel Pelerin) أحد القلاع الرئيسية على ساحل البحر ، حيث تحتضنها الأمواج من ثلاث جوانب (٢)٠

ولكن لماذا قام الصليبيون بتشييد ذلك الحشد الهائل من القلاع والحصون وأبراج الحراسة فى الشام ، خلال الفترة التى نتناولها بالدراسة ؟ ولماذا كرسوا الكثير من وقتهم ونشاطهم ومهاراتهم منذ اللحظة الاولى من أجل اقامتها ؟ ربما كان مجىء الصليبيين الى الشام يتفق مع بداية الحقبة التاريخية الكبرى لبناء القلاع فى أوروبا ، فالبرج الابيض فى لندن ، وهو نموذج اولى للحصون التى ظهرت فى الغرب الاوروبى ، بنى فى عام ١٠٧٧ م ، بالاضافة الى أن كل اقطاعى فى غرب اوروبا له قلعته التى تحميه ، ومملكة بيت المقدس الصليبية لم تكن الا صورة من الاقطاع الاوروبى فى الشرق الأدنى (٣) ٠ ولكن هناك أسباب ملحة تفسر قيام الصليبيين بتشييد الوفير من الابنية الدفاعية ٠ وهذه الاسباب لانجدها الا فى موقع المملكة اللاتينية نفسها ٠

فبعد أن عبرت جيوش الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس عام ١٠٩٧م، وحتى طرد البقايا الصليبية فى اغسطس عام ١٢٩١ م ، من المشاهد أن المملكة اللاتينية شكلت موقعا فريدا ، بمعنى انها احتلت موقعا يجعلها ــ باستمرار ــ

---

(١) Fedden : op. cit. p. 22

بنى هيوسانت أومر قلعة تورون المعروفة حاليا باسم تبنين ، على جبل يشرف على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق ، أما صفد فقد شيدها فولك عام ١١٤٠ م بأعلى طبرية ، على أهم مواقع الفرنجة الواقعة بين عكا والاردن ٠ انظر :

Grousset : Hist. des croisades et du Royaume Franc des Jerusalem. Vol. II p. 138.

(٢) Fedden : op. cit. p. 22

(٣) Fedden : op. cit. p. 10.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٥١ ٠

عرضة للهجوم من جيرانها المسلمين (١) • فأراضى الصليبيين التى امتدت من الجنوب الى الشمال ، وضمت كونتيه طرابلس وامارة انطاكية وامارة الرها التى ظلت خمسين عاما ، يبلغ طولها من اربعمائه الى خمسمائة ميلا تقريبا ، وفيما عدا اقصى الطرف الشمالى ، فقد كان عرض المملكة الضيق يسبب خطورة ، اذ أنه يتراوح بين خمسين وسبعين ميلا ، فمثلا كان امتداد امارة الرها لايزيد عن ٢٥ ميلا (٢) • وعلى الجانب الصحراوى الطويل لهذه الدولة الساحلية ظلت مدينتا دمشق وحلب الاسلاميتين القويتين ، دون أن يتمكن الفرنجة من الاستيلاء عليهما ، بل شكلتا قاعدتين خطيرتين ، استطاع المسلمون الانطلاق منهما ، لتوجيه الهجمات العنيفة والضربات المتواصلة لتلك الدولة (٣) • ومن الطبيعى أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماما ، لو أن الصليبيين بدلا من اندفاعهم بحذاء الساحل فى الطريق الى بيت المقدس ، اتجهوا نحو الشرق واستولوا على دمشق قاعدة الشام ، ولكنهم اضاعوا تلك الفرصة ، وكلفهم ذلك الكثير ؛ فلو حدث أن نجحوا لكانت الصحراء حدا فاصلا ، يفصل مملكة بيت المقدس عن هجمات المسلمين من الشرق ، تلك الصحراء التى يبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، والتى تعوق تقدم أى جيش (٤) • ولكن الصليبيين ادركوا خطأهم المميت بعد فوات الاوان ، وبذلك ظل المسلمون قابلين للحركة باستمرار ، على الجانب الطويل المكشوف لمملكة اللاتين ، الامر الذى أدى الى ضرورة قيام نظام دفاعى •

وهناك سبب أبعد وأشد خطورة ، جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة ، ذلك هو النقص فى القوة البشرية • فالجيش الصليبى الذى خرج من نيقية عام ١٠٩٧ م كان ضخما بالنسبة للجيوش المعاصرة ، ولكن الخسائر عند دوراليوم كانت ضخمة أيضا ، بحيث أن الجيش الذى فرض الحصار على انطاكية ، كان يتراوح بين خمسين الفا ومائة الفا (٣) • وعندما أوشك

---

(١) Fedden : op. cit. p. 11.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit. &

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٢ •

(٥) Fedden : op. cit. p. 13.

الصليبيون على الوصول الى هدفهم ، انسلخ القواد الواحد بعد الآخر بالقوة العسكرية التابعة له ، ليؤسس لنفسه ممتلكات اقطاعيـــة ، لذلك كان من المحتمل أن الجيش الذى وصل الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، لم يتجـــاوز ١٥٠٠ فارس ، وعشرة امثالهم من الجنود المشاه (١) · والاجابة الطبيعية لهذا المأزق الذى وقع فيه الصليبيون ، تمثلت فى طلب الامدادات العسكرية من أوروبا، وفى هذه الحالة فان التعزيزات التى كانت تصل الى الاراضى المقدسة لم تكن ملائمة ، وكان نصيبها الفشل · وعلى هذا فلم يعد باقيا أمام الصليبيين سوى القيام بأعمال التحصينات الدفاعية ، وبمعنى آخر أن تقوم الأحجار بعمـــل الجنـــود (٢) ·

وتأمين حركة الحج الى الاراضى المقدسة ، كان أيضا من الاسباب التى ادت بالصليبيين الى بناء القلاع والحصون · فمن المعروف أن الصليبيين أتوا الى الشام لأغراض ظاهرة ، منها تحرير الاماكن المقدسة من سيطرة الأتراك السلاجقة ، وما أن وصلوا الى هدفهم حتى عكفوا على تأمين حركة الحج من الساحل الى كنيسة القيامة ، ولهذا شيدوا سبعة معاقل بين يافا والقدس ، أهمها قلعة شقيف أرنون (٣) ·

والجدير بالذكر أن خوف الصليبيين الدائم من تحركات جيرانهم المسلمين، جعلهم لا يأبهون ببناء الكنائس والقصور أول الامر · فالكنائس والقصور ينبغى لها أن تنتظر حتى يطمئنوا الى تملك البلاد ، ولهذا لجأوا الى بنـــاء

---

(١) Loc. cit.

(٢) Fedden : op. cit. p. 14.

(٣) Fedden : op. cit. p. 16 and

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٢ ·

تعرف قلعة شقيف أرنول عند الغربيين باسم بلفورت Belfort ، وسماها العرب شقيف عرنون نسبة الى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون ، وتقوم هذه القلعة وكأنها عش نسر على شاهق يشرف على نهر الليطانى على ارتفاع ٢١٩٩ قدما فوق سطح البحر ، وهى بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبى الذى يربط صيدا وصور بالبقاع فدمشق · وقد بناها فولك عام ١١٣٥ م (فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٨ ـ ص ٣٦٠) ·

الاستحكامات الدفاعية ، وأصلحوا اسوار المدن ، وشيدوا القلاع لحراسة الحدود ، لاستخدامها مراكز ادارية آمنة للمناطق بالبلاد (١) ٠

ولكى يحتفظ الصليبيون بتثبيت أقدامهم على الشاطىء ، كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، حتى يبقوا فى الوقت نفسه على اتصال بمواطنيهم فى الغرب الاوروبى ؛ وهذا الاتصال ميزة من الممكن أن يستغلها فرنجة الشرق ، وذلك باستدرار عطف الغرب الاوروبى فى ارسال النجدات ؛ ولهذا كله كان على الصليبيين اقامة التحصينات الساحلية ، ليؤمنوا العمليات البحرية ، فقاموا ببناء سلسلة من الابراج استخدموها للمراقبة على الشاطىء (٢) ٠ وقد وجد الصليبيون فى معظم موانى الساحل حصونا بيزنطية وأسوارا عربية ، شيدت قبل وصولهم الى الشام بمدة طويلة ، ومن ثم اقتصرت اعمالهم على الامتداد أو التوسع ؛ ومن أمثلة تلك القلاع حصن انطرطوس Tortosa وجبيل وبيروت وقلعة البحر فى صيدا (٣) ٠

هذا ومن الملاحظ أن الصليبيين اجتنبوا اقامة القلعة أو الحصن فى وسط المدينة ، كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء اسوة بالرومان ، وبدلا من ذلك ، شيدوها فى أحد اركان المدينة ، كى تستطيع أن تقوم بواجبها كوحدة مستقلة فعالة ، محتفظة بحرية مواصلاتها ، واذا حدث أن سقطت المدينة ، استطاعت القلعة الحفاظ على مواصلاتها البحرية (٤) ٠

وقد دخلت فى تركيب وبناء الحصون والقلاع الصليبية بالشام ، مواد مأخوذة عن ابنية أقدم عهدا شادها الاغريق والرومان من قبل ، أى أنهم انتفعوا بخرائب الآثار القديمة للهياكل والقصور ، فانتزعوا احجارها ،

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ ٠

(٢) Fedden : op. cit. p. 18.

فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٦ ٠

(٣) Fedden : op. cit. 18.

(٤) Loc. cit.

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٣ ٠

واستعانوا بها فى البناء ، وبذلك وفروا مشقة نقلها من المقاطع (المحاجر) (١) · وليس هذا فقط ، بل انهم انتفعوا بالقلاع والحصون التى سبق أن اقامها اما الرومان أو البيزنطيون أو العرب ، فأصلحوها ورمموها واعادوا بنائها · وفى نفس الوقت شيدوا انواعا عديدة من التحصينات ، اختلفت فى أحجامها ، من الأبراج الصغيرة المعزولة ، الى الحصون المنيعة القادرة على استيعاب حاميات تزيد عن الألف · وليس من السهل تتبع المراحل التى مر بها الفرنجة ، واستطاعوا بفضلها الوصول الى ذروة فن العمارة الحربى الخاص بهم · ذلك لأن معظم القلاع انتابتها يد التجديد على الدوام ، وهى فى الوقت الحالى تأخذ المظهر الذى كانت عليه فى القرن الثالث عشر ، عندما وقعت فى نهاية الامر فى أيدى المسلمين (٢) ·

كان أهم ما يميز طابع القلاع والحصون فى أوائل القرن الثانى عشر ، استخدام الحصن النورمانى المربع على غرار القلاع الفرنسية ، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبيا ، وذات نتوءات واضحة ؛ وقد استفاد الصليبيون فى هذا الصدد بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية ، فضلا عما نقلوه معهم ــ بصورة أمينة للاصل ــ من الغرب من أساليب البناء الحربية (٣) · واذا كانت الشام مسرحا للاحداث البيزنطية والعربية ، والدولة البيزنطية ــ كما نعلم ــ وريثة الدولة الرومانية ، بذلك يكون المسلمون والصليبيون على حد سواء ، قد عرفوا الكثير من التحصينات الدفاعية ، التى ترجع الى ما قبل القرن الثانى عشر بكثير (٤) · وتأثر الصليبيون بما وجدوه يرجع الى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم ، عبر آسيا الصغرى عام ١٠٩٧ م ، عندما مروا بانقاض نيقية ، ثم فى العام التالى

---

(١) لامنس : تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ص ٦١ ــ ٦٢ ·

(٢) Oman : A Hist. of The Art of War. Vol. II p. 29.

(٣) Fedden : op. cit. p. 27 &
Archer : the Crusades. p. 361 &
عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٥٦ ــ ص ٥٧ ·

(٤) Fedden : op. cit. pp. 22–23

عندما استولوا على مدينة أنطاكية • وكلا المدينتان من أساليب التحصين البيزنطية التى ظفرت باعجاب الصليبيين •

وحين نبحث مسألة التأثير البيزنطى ، لابد أن نضع فى الاعتبار أن احتياجات الصليبيين والبيزنطيين ، اختلفت احداها عن الأخرى • فالبيزنطيون لم يقاسوا النقص فى القوة البشرية ، ذلك الداء المزمن الذى عانى منه الصليبيون فيما بعد ، بالاضافة الى أن الفنون الحربية وأسلحة الحصار خلال الفترة السابقة للحروب الصليبية ، لم تتطلب الاسوار الشديدة الصلابة (١) • والصفة المميزة للقلعة البيزنطية ، اعتمدت على سور ساتر Curtain Wall رفيع نسبيا ، تحميه عدة أبراج مربعة الشكل بارزة قليلا خارج ستارة السور ، على مسافات مختلفة غير منتظمة ، ففى أجزاء السور التى يمكن الوصول اليها ، تقاربت الابراج ، أما فى الأجزاء المنيعة التى يصعب الاستيلاء عليها ، تباعدت الابراج (٢) • واذا كان البيزنطيون قد اهتموا اهتماما بالغا بحفر خندق كبير يحيط بأسفل أسوار القلعة ، ويتقدمه ركام ترابى (متراس)، فمن الملاحظ أنهم لم يهتموا كثيرا باختيار البرج المربع المنيع ، أو العمل على تقوية الاسوار ومتانتها (٣) •

ولم يكتف الصليبيون فى ايامهم الاولى الاستفادة من نماذج التحصينات الدفاعية البيزنطية التى وجدوها ، ولكنهم أدخلوا تحسينات عليها • فالحصون التى على شكل المحار Shell-Keeps ، أو البرج المربع المنيع Donjon — Keep الذى يقوم بوظيفة الخط الدفاعى الاخير للقلعة ، هذه الحصون التى خلفها الفرنجة وراءهم فى الغرب الاوروبى ، أدركوا انها لاتصل فى مناعتها بالنسبة لما شاهدوه فى الشرق (٤) • ومن ثم استخدموا

---

(١) Ibid. p. 23

(٢) Oman : op. cit. Vol. II p. 28

(٣) Fedden : op. cit. p. 23.

(٤) Fedden : op. cit. pp. 23 — 24

(٥) Oman : op. cit. Vol. II p. 30.

الابراج فى حصونهم على غرار النمط البيزنطى ، وشيدوها بادىء الامر مربعة الشكل ، من غير النتوء البارز الذى عرفه البيزنطيون (١) · وتأثر الصليبيون ايضا بتقليد الحصـــون البيزنطية ، التى كان البيزنطيون يشيدون فيها برجا واحدا يمتاز بضخامته ومنعته عن الابراج الاخرى · وذلك البرج القوى المنيع Massive Keeps—Donjon ، تألف غالبا من طابقين وشرفة Terrace (٢) ، بدأ الصليبيون فى أقامة العديد منه فى صافيتا والكرك ، وصهيون ، وجبلة ، وعكار ، بالاضافة الى اماكن أخرى · وفى هذا الصدد كانت لهم تجربة سائدة فى الغرب الاوروبى ، سرعان ما تخلوا عنها ، فقد كانوا يشيدون أقوى برجفى القلعة فىمكان يسهل الدفاع عنه، حتى يتحمل ذلك المكان كثافة الهجوم وشدته ؛ ولكنهم ادركوا أن خير مكان يقام فيه هذا البرج ، هو المكان الذى لا يصل اليه المحاصر بسهولة ، أى فى أشد المناطق خطورة فى القلعة (٣) · ويعتبر البرج المربع من أهم السمات البارزة التىارتبطت بالأرض المقدسة منذ البداية ، غير أن له مساوىء خطيرة ، وضحت فى حروب الحصار المتعاقبة ، منها أن باب البرج لايسمح للحامية بالانســـحاب عندما تضطر الاحوال، كما أن هناك مساوىء فنية أخرى لازمت كلا من البرج المربع وبرج السور المربع ، فهما معرضان من زواياهما (اركانهما) للغم (٤) ·

ونلمس التقدم الواضح للخندق البيزنطى على أيدى الصليبيين فيمـــا نشاهده فى الخندق الكبير المحفور فى الصخر المحاط بقلاع صهيون والكـــرك والصبيبة والشقيف وعثليت (قلعة الحاج) (٥) ·

ولندرة الأخشاب فى الشام ، اضطر الصليبيون الى استخدام العقـــود والقبوات (القناطر) من الحجر ، بدلا من الخشب ، واضطروا أيضا الى تحديد

---

(١) Fedden : op. cit. p. 24

(٢) Ibid : p. 27

(٣) Oman : op. cit. Vol. II p. 30

(٤) Fedden : op. cit. pp. 27—28 &
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ·

(٥) Fedden : op. cit. p. 24

عدد الطوابق التى لم تتجاوز اثنين أو ثلاثة ، كما أن الابراج التى تتوسط القلاع الصليبية Keeps . كانت أقل علوا من تلك المألوف فى الغرب (١) ٠

وعلى كل حال ، فقد نشطت حركة بناء القلاع وتعميرها على ذلك الاسلوب بصورة واضحة على عهد بلدوين الثانى ، ثم على وجه الخصوص على عهد فولك أنجو (١١٣١ ـ ١١٤٤ م) ٠ ففيما بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م شيدت سلسلةقوية من القلاع فى الجنوب الغربى من عسقلان ، تضم قلعة تل الصافية Blanche gard ، وذلك لحراسة الطريق الممتد من عسقلان الى بيت المقدس (٢) ٠ وفى بيت جبرين Bethgibelin ، تلك القرية التى أطلق عليها الصليبيون خطأ اسم بير سبع ، شيد حصن سيطر على الطريق الممتد من عسقلان الى الخليل (٣) ٠ والواضح أن الهدف من هذه الاستحكامات ، منع غارات المصريين المرابطين فى عسقلان ، فضلا عن اغلاق الطريق من مصر الى فلسطين (٤) ٠ وفى عام ١١٣٩ م بدأ الفرنجة يشيدون قلعة شقيف المنيعة على أحد الجبال المطلة على نهر الليطانى ، كى يتحكموا فى أحد مخانقه الضيقة ؛ وبعد اربع سنوات شيدوا الكرك فيما بين ١١٤٠ ـ ١١٤٣ م شرق البحر الميت ، وهى قلعة تمتاز بموقعها العسكرى وتعد نموذجا طيبا فى أسلوب التحصين ؛ وفى تلك الأثناء تسلمت طائفة الاسبتارية حصن الفرسان (الأكراد Crak des Chevaliers ؛ ومن أهم تلك القلاع قلعة كوكب الهواء Belvoir التى شيدها فولك عام ١١٤٠ م على الأسلوب البيزنطى، اذ يحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع (٥) ٠

---

(١) Ibid. p. 26.

(٢) Grousset : op. cit. Vol. II p. 156 & عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٨ ٠

(٣) William of Tyre : op. cit. Vol. II p. 132

(٤) Ibid Vol. II pp. 80—81.

(٥) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٩ ٠

وقد دعـا الضعف المتوارث للحصن النورمانى المربع والبرج المربع فى السور ، الى التخلى جزئيا عن الشكل المتبع ، والى احداث تغييرات هامة فى عمارة القلاع الصليبية أواخر القرن الثانى عشر الميـــلادى (١) · ومن المشاهد أن الفرنجة لم يشيدوا ـ قبل حوالى عام ١١٧٠ م ـ أية أبراج مستديرة ضخمة ، ولكنهم بعد معركة حطين عام ١١٨٧ م ، اعتمدت أعمالهم الدفاعية على الأبراج المستديرة ذات النتوء الكبير ، الذى يمتد نحو الاتجاه المتوقع منه الهجوم ، والتى من مزاياها انها كانت تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية (٢) · وربما يرجع السبب فى استخدام الابراج المستديرة ، الى أنها كانت تستطيع مقاومة الآلات الحربية المستخدمة فى هدم الأسوار على حين أن الحصون المربعة تمثل اركانها نقاط ضعف (٣) ·

هذا ، ويعزى الى بداية القرن الثالث عشر ، التطور الكامل فى بناء القلاع · اذ نشأ نوع من القلاع ، اشتمل على عدة خطوط أو ساحات دفاعية متعاونة ، تعتمد على بعضها بعضا داخل القلعة ، وأطلق عليه « القـــلاع المتداخلة الحصون » Concentric ، بمعنى أن المحاصر لايستطيع الوصول الى أهم نقطة فى الدفاع الا بعد أن يواجه خطوط الدفاع الخارجية · وقد ظهر ذلك النوع من التحصينات فى الشرق الفرنجى أوائل القرن الثالث عشر ، ومن المحتمل أنه خرج الى حيز الوجود بعد الزلزال المرعب ، الذى حدث فى ٢٠ مايو عام ١٢٠٢ م ، وحطم جانبا كبيرا من القلاع الصليبية فى الشام· وعلى أية حال ،فان الغالبية العظمى من قلاع القرن الثالث عشر ، توضـــح لنا التطور الرائع فى العمارة الحربية من ذلك النوع الذى اطلق عليه « القلاع المتداخلة الحصون » (٤) ·

---

(١) Fedden : op. cit. p. 28

(٢) Loc. cit. & Oman : op. cit. Vol. II p. 33

(٣) Cman : op. cit. p. 34

(٤) Oman : op. cit. p. 38

ولم يمض وقت طويل على القرن الثالث عشر ، حتى صار ذلك النوع من القلاع شائعا فى غرب أوروبا ، ولكن الكتاب المعنيين بالعمارة الحربية أطلقوا عليه الادواردى Edwardian نسبة للملك ادوارد الذى شيد أفضل نموذج لهذا النوع خلال مدة حكمه (١٢٧٢ ــ ١٣٠٧ م) • غير أن هذه التسمية لاتتفق مع الواقع ، لأن الأمثلة المبكرة لهذا النوع ترجع الى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦ ــ ١٢٧٢ م) • وقد أضحى برج لندن النموذج المتقن الرائع لهذا النوع من القلاع ، عندما أضاف اليه هنرى الثالث سياجته الدفاعية الخارجية فى الفترة ما بين ١٢٤٠ و ١٢٥٨ م • ومن هذه النماذج أيضا قلعة كارفيللى Caerphilly التى تعد من أفضلها ، وقد شيدت قبل اعتلاء ادوارد العرش بعام • ومن المستبعد القول أن الملك ادوارد أتى معه بتصميم ذلك النوع بعد عودته من الحملة الصليبية التى قام بها فى الشرق عام ١٢٧٠ م ، اذ استخدم هذا النوع فى انجلترا ، لاسيما القارة الاوروبية قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة (١) •

ولا يعرف على وجه الدقة أصل هذا الأسلوب فى القلاع الصليبية • صحيح أن الامبراطورية البيزنطية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة فى بيزنطة وغيرها ، كما استخدمها الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) ، عند بناء الاسوار المستديرة فى تشييد مدينة بغداد فى القرن الثامن بدلا من دمشق عاصمة الأمويين ؛ وعرفت فى انجلترا على أيام الرومان والسكسون بعض الاستحكامات الترابية من هذا النوع **Concentric earthworks** • ومن الممكن أيضا أن تكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد تطورت من البرج الذى على شكل المحار Shell-Keep وهو عبارة عن قلعة وحصن Keep-fortress شيد وسط فناء ؛ وقد اثبت هــذا التخطيط فى أوروبا ، أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة (٢)•

---

(١) Ibid. pp. 38—39

(٢) Fedden : op. cit. pp. 28—29 &

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع وصفحة •

وعلى أية حال ، فانه مهما اختلفت الآراء فى منشأ هذا الطراز المعمارى أهو شرقى أم غربى ؛ وبمعنى آخر سواء عرفه الفرنجة فى الشرق ، أم نقلوه الى الشرق، فانه ازدهر على زمن الحروب الصليبية ازدهارا مدهشا ، وهو عنوان القوة الهائلة والجمال النادر فى آن واحد (١) ٠

ومن الحقائق الغريبة فى الشام الصليبية أن عددا من البنائين الذين ارتبطوا بقلاع هيئة الداوية ، والقرين (١٢٢٧ ـ ١٢٢٩ م) معقل طائفة فرسان التيوتون ، هؤلاء البناءون لم يتأثروا بنمط القلاع المتداخلة الحصون Concentric Castles ، بل استمروا حتى نهاية فترة الحروب الصليبية فى تشييد القلاع ذات النمط البيزنطى ، فضلا عن أنهم ظلوا يستخدمون الطريقة القديمة فى بناء البرج المربع ٠ وربما يرجع سبب التمسك بالطراز القديم الى المنافسة الحادة بين الداوية والاسبتارية ، فالاخيرة ارتبطت ارتباطا وثيقا بتطور وازدهار القلاع المتداخلة الحصون ؛ ومن الصعب حاليا أن نكون رأيا فى ذلك ، لأن الزمن أثر فى قلاع الداوية بصورة أشد من قلاع الاسبتارية ؛ ومن قلاع الداوية التى أصابها الضرر الكبير صفد وعريمة وصافيتا وطرطوس، فضلا عن الحصون الجنوبية (٢) ٠

وثمة رأى آخر يذكر أن وجود الابراج المربعة القوية الى جانب الأبراج المستديرة بالشام ، ليس دليلا على أن الفرنجة كان لهم فى الشرق طرازين من المبانى الحربية ، ذلك الذى يتمثل فى الابراج المربعة الذى مارسه فرسان الداوية ، والآخر فى الابراج المستديرة الذى استخدمه الاسبتارية ؛ ولكن المهندسين الصليبيين تكيفوا مع احتياجات الأرض ، فشيدوا مبانيهم وفقا لعقليتهم الدفاعية البارعة (٣) ٠

---

(١) Fedden : op. cit. p. 29 &
عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ ٠
باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٣ ـ ص ١١٤ ٠

(٢) Fedden : op. cit. pp. 30–31.

(٣) Longnon : Les Français d'Outre-Mer p. 148
Dussaud : La Syrie Antique. p. 122.

وقد واكب هذا التطور فى تخطيط القلاع عدة تغييرات فى البناء ، عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، منها احياء استخدام الحجارة المنحوتة (المصقولة) ، التى لابد أن رأوها فى الجوانب القديمة المبعثرة فى كل مكان من المملكة (١) • وتلك الاحجار لايتيسر لسلالم الحصار التغلب عليها ، لأنها لاتستطيع الامساك بها (٢) • وتطورت أيضا طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) التى اضحت تتخذ عادة شكل منحرف الى اسفل ، وأحيانا قاعدة على هيئة ركاب الفرس ، وبذلك سهل الرمى الى اسفل القلعة ؛ ولم تقتصر المزاغل على الطوابق المرتفعة فى الحصن ، بل عمت أيضا فى الطوابق المنخفضة الى مستوى الأرض (٣) • وأخذ الصليبيون أيضا عن العرب ظاهرة المشربيات **Machicolations**، التى زودت بها الأبراج بغرض السيطرة على أسفل السور ، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض ، وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن أن تصوب السهام منه الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، أو يشعلوا النيران ؛ كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين ، ولندرة الاخشاب فى الشام اضطر الفرنجة لاستخدامها من الحجر (٤) • وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية فى عدد من المبانى بالقرب من أنطاكية ، يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين (٥) ، بالاضافة الى مثلين فوق باب النصر (١٠٨٧ م) أحد أبواب القاهرة ، وهما أقدم بنحو قرن من أية مشربية عرفت فى أوروبا (٦) • ذلك أن أقدم أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية فى أوروبا ، نجدها فى قلعة شاتو جايار **Chateau Gaillard** (١١٨٤م)، وشاتيون (١١٨٦ م) ونوريتش (١١٨٧م) **Norwich** وونشستر **Winchester**

---

(١) Fedden : op. cit. p. 25

(٢) Ibid. p. 29

(٣) Fedden : op. cit. p. 29

(٤) Oman : op. cit. Vol. II p. 34 &
سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٩٩ •
زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٦١ •

(٥) Fedden : op. cit. p. 25

(٦) سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة •

(١١٩٣م) • وبمقارنة التواريخ السابقة يتضح جليا أن هذه الظاهرة نشأت فى الشرق قبل ظهورها فى أوروبا (١) •

والجدير بالذكر هنا ، أن المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانوا قوة مهاجمة متحركة ، ذات تفوق عددى عظيم ، لديها القدرة على أخذ زمام المبادرة ، ولهذا فانهم ــ فى المقام الأول ــ لم يهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية ، وبالتالى فان تأثيرهم على العمارة الحربية الفرنجية أمر قليل الشأن (٢) • وعلى الرغم من ذلك ، فقد استفادوا من خبرة العرب فى أساليب البناء الحربى • فهم الذين قاموا بادخال منحدر ضخم الى اساســـات اسوارهم ، مما أدى الى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم ، وتأكيد قـــوة دفاعها ، وقد اتبع المسلمون هذا الاسلوب ، دفعا لأضرار الزلازل ، واعاقة لزرع الألغام (٣) • كذلك عرف الصليبيون أيضا المدخل الملتوى للقلاع عن العرب • فأبان الحروب الصليبية أضحى المدخل الحربى من باب القلعة الى داخلها متعرجا أو على شكل زاوية قائمة ، حتى لايتمكن العدو الذى يصل الى الباب من أن يرى الفناء الداخلى ، أو أن يصوب سهامه الى من فيه (٤)• ويبدو أن الرومان والبيزنطيين لم يعرفوا هذا النوع من المداخل ، وانمـــا كانت تشيد عدة أبواب متتالية على خط عمودى واحد ، يفصل كل باب عن الآخر فضاء • وتدل الابحاث الحديثة على أن العرب كانوا أول من استعمل

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٦٦١ •
مارتن برجز : تراث الاسلام ، ص ١٣٧ ــ ١٣٩ ،
Dussaud : op. cit. p. 143

(٢) Fedden : op. cit. p. 26 &
Longnon : op. cit. p. 146

(٣) Fedden : op. cit. p. 26 &
عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦١ •

(٤) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٢٠٠
زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٦١ •
مارتن برجز : تراث الاسلام ، ص ١٣٩ ــ ص ١٤٠ •

المداخل الملتوية بمدينة بغداد فى القرن الثامن الميلادى ، ثم بدت هذه الظاهرة فى قلعة صلاح الدين بالقاهرة التى شيدت سنة ١١٧٦ م ، ثم ظهر منها مثال بديع فى قلعة حلب • وعندما انتقلت ظاهرة المدخل الملتوى الى قلاع أوروبا ظهرت بوضوح فى قلعة بوماريس Beaumaris فى انجلترا ، وفى قلعة كاركاسون Carcassonne فى فرنسا (١) • وقد أقام الصليبيون فى القلاع عددا من الابواب السرية أو الخلفية Poster. Gate فى اركان خفية ، ليس متوقعا انشاؤها بها ، ويعتبر البيزنطيون أول من أدخل هذا التصميم فى اخفاء ابواب قلاعهم (٢) • ومن التحسينات التى أدخلها الفرنجة على قلاعهم نقلا عن العرب ، وهؤلاء بدورهم عن البيزنطيين « المتراس » - ويمكن وصفه بأنه اطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الاطراف من أسفله، ينزلق عموديا فى حزين جانبيين فى كتفى باب حصن أو قلعة ، ويثبت فى الاطار شبكة من الحديد ، يستطيع المدافعون من خلالها قذف السهام ، ويسدل المتراس عند محاولة المهاجم اقتحام القلعة ، وذلك بخفضه بواسطة حبال متينة أو سلاسل (٣) •

وعلى أية حال ، فان الدروس التى استفادها الصليبيون من البيزنطيين والمسلمين فى مجال العمارة الحربية ، قد حولوها الى فائدة رائعة ومستوى عظيـــم (٤) •

ومن الواضح جليا ، أن الرقاع الصليبية ببلاد الشام قد تقلصت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، ومن ثم فترت حماسة الصليبيين فى تشييد القلاع ، باستثناء القليل • وانتقلت عنايتهم الى تحصين قلاع الساحل ، حتى يتمكنوا من مراقبة

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الاسلامية ، ص ٢٠٠ ،
مارتن بريجر : تراث الاسلام ، ص ١٤٠ ،

(٢) Fedden : op. cit. p. 30

(٣) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٥ •

(٤) Fedden : op. cit. p. 26

البحر ، وان كان هذا لايمنع أن البنائين الفرنجة قد استمروا حتى الساعة الاخيرة فى تشييد وتعمير ، لأن وضع حجر فوق حجر صار خلال قرنين من الزمان طريقة معتادة فى التفكير والسلوك (١) ٠

وقد تميزت القلاع الصليبية بالشام بمنعتها وضخامتها ، وفاقت مثيلاتها فى الغرب الاوروبى ٠ فبعضها كان ضخما للغاية ، حتى أنه بلغ فى حجمه ضعف كوسى Coucy وبييرفوند Pierrefonds اضخم القلاع فى فرنسا (٢) ٠ وكانت تلك القلاع كأنها وحدات دفاعية مستقلة تزداد قوة باتصال احداها بالاخرى ٠ وقد تأثر الصليبيون أثناء وجودهم فى الشرق ، بما وجدوه من نظم اتصال عند المسلمين ٠ من ذلك استخدام الحمام الزاجل فى نقل الرسائل العاجلة ، أو طلبا لنجدة عند اقتراب جيوش المسلمين ، والمعروف ان نور الدين محمود استخدم الحمام الزاجل فى نقل البريد عام ٥٦٧ هـ (٣) ٠ كذلك تأثر الصليبيون فى الشرق باستخدام الاشارات كوسيلة من وسائل التخاطب أثناء الحروب ٠ ففى الليل توقد النيران ، وفى النهار يثار الدخان ؛ وقد عرفت تلك الوسيلة باسم « المناور » أى مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار ، وهى تأتى بالخبر أسرع من الحمام الزاجل (٤) ٠ فمن أعلى حواجز شرفات قلعة الشقيف استطاع رجال الاشارة الاتصال مع جنود الصبيبة أسفل منحدرات جبل الشيخ ، مع قلعة تورون الى الجنوب ؛ ومع حامية قلعة صيدا على بعد ١٩ ميلا على الساحل ٠ وفى أقصى الجنوب ، عندما كان صلاح الدين يحاصر قلعة

---

(١) Ibid. p. 16

(٢) Lamb : The Crusades. p. 386.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٦٧ هـ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ ٠
وقد ذكر ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب جـ ١ ، ص ٢٨٣ ان نور الدين محمود « بنى أيضا الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادى ، فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ٠ فأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لانفسهم ولم يبلغ العدو منهم غرضا » ٠

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٤ ، ص ٣٩٨ ـ ص ٤٠٠ ،
الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ٨٨ ،
Dussaud : op. cit. pp. 146—147

الكرك عام ١١٨٣ م ، كانت تلك القلعة تتصل ليلا بواسطة الشارات النارية ، عند البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها مسافة خمسين ميـــلا (١) ٠

والعديد من تلك القلاع الصليبية بها صهاريج لاختزان المياه ، أو مجرى مغطى يتجه بأسفل الى مستودع كبير للمياه ؛ واذا استبعدنا حالة المفاجاة فى الهجوم على تلك القلاع ، فانها استطاعت الصمود بجدارة أمام هجمـــات المسلمين ، حتى يصل الجيش الرئيسى من مملكة بيت المقدس للنجدة (٢) ٠

ومما يثير دهشة الباحث ، كيف سقطت ـ أو أجبرت على الاستسلام ـ تلك القلاع الكبرى ، التى شيدها الفرنجة على الرغم من ضخامتها وقوتها ؟ ليس من شك أنه قد اجتمعت عوامل على سقوط تلك القلاع ٠ من تلك الاسباب النقص فى القوة البشرية ، والافتقار الى القـــوة الضـــاربة التى عانى منها الصليبيون ، منذ ان وطئت اقدامهم أرض الشام ٠ ففى خلال حصار قلعـــة صهيون المنيعة عام ١١٨٨ م ، اكتشف المسلمون أن قسما كبيرا من الســـور المنيع للقلعة ، لايدافع عنه أحد من رجال الحامية (٣) ٠

وقد أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقلية دفاعية ، فرضت عليهم جهدا نفسيا ومعاناة قاسية ، اذ كانوا على الدوام فى انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت ، الامر الذى أدى الى ان يظلوا فى حال من اليقظة المستمرة والرقابة والانتظار والانصات والخوف ٠ ومن الطبيعى ان رجلا قضى حياته خلف جدار ذى فتحات على سطح حصن ، لابد أن يصيبه الضجر والانهيار والملل ، وتلك كلها أعداء مخيفة للجند تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، خاصـــة اذا جاءت الاشاعات بسرعة الريح عبر الاسوار ، أو اذا تسرب المسلمون من الابواب

---

(١) Lamb : op. cit. p. 58 &
Fedden : op. cit. p. 31

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٧ ٠

(٢) Lamb : op. cit. p. 58

(٣) Fedden : op. cit. pp. 34—35

السرية الخلفية (١) . كذلك الحال اذا نضبت المياه ، وتفشى المرض ،ووصلت انباء تفيد ان العدو قد اباد نجدة كانت آتية لخلاص المدافعين عن القلعة (٢) . وفى الوقت الذى أخذ فيه القرن الثالث عشر يقترب من نهايته ، وتقلصت البقاع الصليبية ، وصارت مسألة الانهيار الشامل لمملكة بيت المقدس مسألة وقت ، تضاءلت الروح المعنوية للقلاع ، ويفسر لنا ذلك لماذا سلمت قلعة انطاكية المنيعة ، ذات الحامية الكاملة عام ١٢٦٨ م ، بعد حصار لم يدم اكثر من خمسة أيام (٣) .

وعلى الرغم مما توافر بالقلعة من مستودعات المؤن والصهاريج ، ظلت المجاعة والعطش من الاخطار السائدة ، فضلا عن أنهما كانا من أهم عناصر اسلحة الحصار فى العصور الوسطى بوجه عام . بيد أن هذا السلاح لم يلعب الا دورا صغيرا نسبيا ابان الحروب الصليبية ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان رجال الحصن لم يكن عددهم من الضخامة ، بحيث يحتاج الامر الى مقادير وفيرة من المؤن ، فقد احتوت القلاع ـ كما سبق ان أشرنا ـ على مخازن تحت الارض مكدسة بالمؤن لمواجهة أى احتمال مفاجىء (٤) . فمثلا وجد فى قلعة المرقب من المؤن التى تكفى الجند لمقاومة خمس سنوات من الحصار ، وكان فى حصن الاكراد طاحون للقمح ومخازن للزيت والحبوب ، وفى قلعة صهيون وجد صهريجان كبيران للمياه ، تكفى حاميتها مدة حصار طويلة (٥) . وفى بعض الاحيان كانت تبدو صورة المجاعة مزعجة مخيفة ، فتذكر المصادر الدفاع المرير الذى قام به رينودى ساجيت Reynaud de Sagette وحاميته الباسلة عن قلعة الشقيف ، وانتهاء ذلك الدفاع بالتسليم لصلاح الدين عام

---

(١) Fedden : op. cit. p. 35

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٢) Fedden : op. cit. p. 35

(٣) Loc. cit.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع والصفحة .

(٤) Oman : op. cit .Vol. II pp. 29—30.

(٥) Fedden : op. cit. p. 36

١١٨٨ ـ ١١٨٩ م ، بعد أن تحمل رجالها قسوة المجاعة ، ومن الحالات التى فتكت المجاعة فيها أيضا قلعة كراك مؤاب ، وقلعة صافيتا عام ١١٨٨م (١) .

ولأساليب الحصار وأسلحته ، صلة وثيقة بسقوط القلاع الصليبية . والملاحظ ان الصليبيين عندما باشروا عمليات الحصار الكبرى للمدن المحصنة الكبيرة ، مثل نيقية وانطاكية أو القدس ، قد اكتسبوا خبـــرة . فالاتهم الواهية ، وطريقتهم العتيقة فى الهجوم ، كانت عاجزة تماما عن التغلب على مثل تلك التحصينات ، ولولا عنصرى المجاعة والخيانة ، لما تمكنوا من الاستيلاء على الاماكن التى فرضوا الحصار عليها (٢) . ولكنهم خلال فترة وجودهم بالاراضى المقدسة ، أحكموا فن الحصـــار وبرعوا فيه . والجيش المحاصر للقلعة لم يكن أمامه سوى أحد اختيارين ، أما الهجوم أو القصف ، وبمعنى آخر ، اما تسلق سور القلعة أو الحصن ، أو ايجاد ثغرة فيه (٣) .

ويعتبر سلم تسلق الاسوار (السلالم المتحركة) أبسط طريقة للهجوم المباشر ، بيد انه يكلف الجيش المحاصر العديد من الارواح ، اذ يسهل بعدد ملائم من حامية القلعة صد الهجوم ؛ ولكن اذا كانت الهجمات مكثفـــة ومتوالية ، فانها تعطى أملا فى اقتحام الحصن . واذا كان الغرض الرئيسى من السلم المتحرك ، هو وصول الجيش المهاجم الى مستوى حاجز شـــرفة الحصن ، ففى الامكان الاستعاضـــة عنه بطريقة معقدة ، تتمثل فى تكديس الأتربة على جدار السور ، حتى يتكون منحدر كبير ، تستطيع القوة المهاجمة أن تتقدم من فوقه (٤) . على أن هذا الاسلوب الاخير ، يعرض الجند المتقدمين على المنحدر الترابى لخط النار المدمرة التى تلقى عليهم من شرفات الحصن ، مما يؤدى الى كوارث فادحة ، بالرغم من أن الجيش المهاجم كان يستعين بالسواتر النقالة المغطاة بجلد الحيوان (٥) . ولا يغيب عن البال أن السلم

---

(١) Loc. cit

(٢) Oman : op. cit. Vol. II p. 24.

(٣) Fedden : op. cit. p. 37

(٤) Loc. cit.

(٥) Loc. cit.

المتحرك عرضة للكسر أحيانا ، كما حدث خلال حصار انطاكية فى ٣ يونيو عام ١٠٩٧ م (١) ٠

أما عن أبراج الحصار أو الدبابات الخشبية أو قلاع الحصار Siege Castle ، فكانت أهم أسلحة العصور الوسطى الهجومية ، وأكثر فعالية من السلالم المتحركة ، استخدمها اللاتين خلال عمليات الحصار فى الشام ٠ وقلعة الحصار كانت عبارة عن برج متحرك مبنى من الخشب ، بالغ الارتفاع، لدرجة أنه يصل الى أقصى ارتفاع جدران حصن أو مدينة معرضة للهجوم ٠ وتتحرك قلعة الحصار على عجلات ، وفى أعلاها وجد رماة الأسهم والمنجنيقات والآلات الأخرى المعدة لاطلاق القذائف ٠ ويحاول المحاصرون ابعاد قلعة الحصار ـ أو الدبابة ـ عن الاسوار ، بلصق عروق خشبية ذات رؤوس حديدية فى الأسوار لتقاومها ؛ واذا وجدوا أن تلك الطريقة لاطائل تحتها ، فانهم كملاذ أخير ، ألقوا بالنار الاغريقية ، أو الاسهم المشتعلة ، مما يؤدى الى اشتعال النار فى قلعة الحصار ٠ وحتى تكون قلعة الحصار بمنأى عن تأثير النار ، فقد روعى تغطيتها بالجلود المنقوعة فى الخل (٢) ٠

وقد ساعدت تلك الأبراج فى الاستيلاء على بيت المقدس ، ومن قبل على مدينة المعرة ، ففى نوفمبر عام ١٠٩٨ م أمر ريموند الصنجيل رجاله ببناء برج حصار خشبى ، ولما تم بناء البرج ، وقف الفرسان فى الطابق العلوى منه ، فى حين قام رجاله أسفل البرج بدفعه نحو سور المدينة ، وأثناء انشغال المسلمين بالقاء الاحجار والنار الاغريقية على البرج ، تمكن جنود صليبيون آخرين من احداث ثغرة فى السور ، نفذوا منها يوم ١١ ديسمبر ، حيث استطاعوا الاستيلاء على المدينة (٣) ٠ وخلال نزول الفرنجة على ميناء صيدا فى ١٩ اكتوبر عام ١١١٠ م (٣ ربيع الآخر عام ٥٠٤ هـ) ، ومضايقته برا وبحرا ، قاموا بتجهيز برج البسوه بحطب الكرم وجلود البقر الطرية ، ليقاوم

---

(١) Gesta Francorum. pp. 46–47

(٢) Archer : op. cit. pp. 352–353

الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢ ٠

(٣) Gesta Francorum, pp. 77–79

الحجارة والنفط ، ثم نقلوه على بكر (عجلات) ، وزحفوا به بعد أن زودوه بالماء والخل لاطفاء أى نيران تلقى عليه (١) . وخلال حصار الصليبيين لعكا عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، قاموا بصنع ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، شديدة العلو ، بحيث امكن رؤيتها من أسوار المدينة ، مركبة على عجل «يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ماقيل » ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، فقام السلطان صلاح الدين بجمع الزراقين والنفاطين للعمل على احراقها ، ولكنهم اخفقوا ؛ ولكن شابا (أغفل التاريخ ذكر اسمه) نحاسا من دمشق ، استطاع أن يخلط بعض المواد فى قدور من النحاس ، وسكبها على البرج الاول ، فالتهبت فيه النيران (٢)! ، ومن مساوىء تلك الأبراج الخشبية ، انها لا تستطيع العمل الا على أرض مستوية ، او لم يكن ثمة خندق ، بالاضافة الى أن المدافعين يمكنهم اكتشافها بسهولة (٣) .

ووجدت وسائل مالوفة لاحداث ثغرة فى أسوار المدن والقلاع على زمن الحروب الصليبية ، وهى : الكبش Ram والمنجنيق Mangon والنقب Bore أوزراعة الالغام Mine . وكان يتم تجهيز الكبش من أكبر ساق لأضخم شجرة يمكن أن تقدمها منطقة الصراع ، ثم يعلق ذلك الساق بعد أن يوضع فى مقدمة ثقل من الحديد ، على نطاق وسط عمودين قصيرين ، ويجر الكبش على عجلات الى القلعة ، ويقوم فريق من الرجال من الممكن ان يصل عددهم الى ستين رجلا ـ تحت غطاء سقيفة وقائية ـ بتوجيه الدعامة الخشبية الكبيرة ، تجاه موضع فى الحائط وقع علية الاختيار لاحداث الثغرة به (٤)! . وامام الضربات المروعة المتواصلة ، لايستطيع أى بناء الصمود

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٠١ ـ ص ٤٠٢ .
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٦ هـ .

(٣) Fedden : op. cit. p. 38
Gesta Francorum, p. 91

(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢١٣ ،
Fedd en : op. cit. p. 38
Archer : op. cit. pp. 351—352

اذ تتخلخل أحجاره ويمكن انتزاعها • غير أنه من الممكن مقاومة ذلك السلاح، مثلما استطاعت القوة المطوقة المسلمة أثناء فرض الحصار على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، أن تدلى بكتل من القضبان والعوارض الخشبية لايقـــاف الصدمة ، فضلا عن الامساك بالكبش ومنعه من التحرك ، حتى لايوزع ضرباتـــه (١) •

والجدير بالذكر أن الاسوار التى كانت فى متناول المحاربين ، كان يتم ضربها بالكباش ، أما تلك التى لايمكن الوصول اليها اما لوعورة الطريق ، أو وجود خندق مثلا ، فكان يتم قصفها بالمنجنيق (٢) • والمنجنيق ، تلك الآلة التى أطلق عليها بصدق مدفعية الفترة الصليبية ، والتى امكن للمحاصرين والمدافعين استخدامها سواء بسواء ، لم تكن فى الحقيقة غير مقلاع بلغ من القوة بحيث استطاع القذف بصخور ضخمة • وقد وصف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى (٣) المنجنيق قائلا : « آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة ، فيخرج الحجر ، فما أصاب شيئا الا اهلكه » • وهو على اصناف كثيرة ، منه الصغير والكبير ، ذو احجام مختلفة (٤) • غير أنه لما كان مسار القذيفة منحنى عال ، كان من الصعب تصويبها بدقة واحكام على نقطة معينة فى الجدار (٥) • كذلك كان من الصعب استخدام المنجنيق فى فصل الشتاء ، اذا اتفق وقوع الامطار والثلوج ، اذ تحدث المقاساة بسبب جـــر العجل بواسطة الابقار ، فالمسافة التى يستغرقها جر البكر (العجلات) على أرض جافة فى احوال جوية عادية ، تختلف عنها على أرض وحلة سببتهـــا سقوط الامطار • فقد حدث خلال زحف السلطان الاشرف خليل بن قلاوون على عكا عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، أن استغرق جر آلات المنجنيق من حصن

---

(١) Fedden : op. cit. p. 38

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٨٨ ــ ص ١٨٩ •

(٣) جـ ٢ ، ص ١٤٤ •

(٤) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٩١ •

Fedden : op. cit. p. 39

الاكراد الى عكا شهرا كاملا ، فى حين أنها لاتزيد عن ثمانية أيام فى الاحوال العادية (١) • ولم يكن المنجنيق معروفا للفرنجة ، ولكنهم اقتبسوه لأنفسهم فى النصف الاول من القرن الثانى عشر ، عندما شاهدوا استخدامه بشكل عام بين المسلمين (٢) •

وثمة نموذج آخر من القذائف (المدفعية) التى استخدمت ببلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، وهو نوع من انواع المنجنيق اطلق عليه البعيد المدى Terbuchet ، ومهمته قذف الاجسام من مسافة طويلة • وقد تألف ذلك النوع من سارية طويلة وضعت على شكل النواسة (لعبة من لعب الاطفال) ، أو الارجوحة فوق عمود • وللسارية طرفين ، طرف قصير غليظ كان يوضع فيه ثقلا كبيرا ، وطرف السارية الاطول لوضع القذيفة ويثبت بالارض • وحين يفصل طرف السارية الطويل من الارض ، فان الثقل الموازن يقوم بطرد (اطلاق) القذيفة • ومع أن المسار المنحنى لذلك النوع من المنجنيق يشبه المسار المنحنى للمنجنيق ، الا ان الاول كان له ميزة كبيرة ، فمن أجل الحصول على دقة أبرع فى التصويب ، من السهل أن يكيف (يعدل) وضع الثقل على طرف السارية ، بحيث يصير قريبا من النقطة المحورية (٣)•

وقد اختلف النقب ــ أو زراعة الالغام ــ عن الكبش ، ففى حالة النقب امكن ايجاد ثغرة فى أى جدار بالحفر ، بدلا من احداث الصدمة فى حالة الكبش• وقد عرف الرومان زراعة الالغام من قبل لما لها من أهمية • وعلى عهد الحروب الصليبية ، كانت أهم أخطار أسلحة الحصار المعاصرة ، فقد استخدمها المهندسون (اللغامون) ببراعة تامة ، خاصة مهندسو حلب ــ الذين استخدمهم ريتشارد الاول عند حصار داروم عام ١١٩٢ م ــ فقد بلغوا شأوا عظيما فى هذا المضمار • والحقيقة أن وضع الالغام فى عصر لم يكتشف فيه البارود ينم عن فن حربى عبقرى ، فبعد أن يقوم المهندسون بازالة الاتربة من تحت البرج ، يحدثون فجوة على عمق لابأس به ، يسندونها بأعمدة من

---

(١) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٤ ،
أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ص ٢٤ •

(٢) Fedden : op. cit. p. 39

(٣) Loc. cit.

الخشب كلما تقدموا من خلالها ، ثم يضعون الحشائش الجافة سريعة الالتهاب ، وعندما يتم اشعالها تتداعى الفجوة ، وما يعلوها من البناء (١) • غير أن زراعة الالغام كانت تبدو مستحيلة فى بعض الاحيان ، اذا كانت القلعة مشيدة على صخرة صلبة مثل حصن الاكراد ، فاذا هوت القلعة ، كان ذلك عادة لأسباب أخرى (٢) • ولاريب أن أبرع استخدام لزراعة الالغام ، حدث فى قلعة المرقب للاسبتارية ، التى لم يستطع صلاح الدين الايوبى الاستيلاء عليها ، فبعد اعدادات شاملة استغرقت وقتا طويلا ، قام السلطان المنصور قلاوون على رأس جيش كثيف ، بتطويق تلك القلعة عام ١٢٨٥ م ، ولكن المجانيق الوفيرة التى نصبها على سفح الجبل التى تقع القلعة بأعلاه ، كان مصيرها الدمار على يد الحامية الفرنجية • ونتيجة لذلك ، زرع المسلمون الالغام فى التحصينات الدفاعية للقلعة ، وتمكنوا من اسقاط التحصينات الخارجية ، ثم وجهوا هجوما الى التحصين الرئيسى فى القلعة انتهى بالاخفاق • وعاود المهندسون زراعة الالغام ، وبعد أن قضوا ثمانية أيام فى عمل متواصل تحت الارض ، استطاعوا احداث ثقب تحت البرج الدائرى الذى كان بمثابة التحصين الرئيسى • وملاوا ذلك الثقب بالاخشاب سريعة الالتهاب ، وفى ٢٣ مايو عام ١٢٨٥ م اشعلوا النار فى الثقب • فأخذ البرج يهوى ، ودخل السلطان القلعة فى موكب فى ٢٥ مايو عام ١٢٨٥ م (٣) •

وملكية كل قلعة من القلاع الصليبية بحاميتها الصغيرة القديرة ، وبما احتوت عليه من اسطبلات واسعة ، وأبراج حمام ، وطواحين ، ومستودعات سرية ضخمة تكفى مؤنا غذائية لحصار طويل الأمد ، وصهاريج مياه ضخمة، كانت تابعة لاحد كبار الاقطاعيين (٤) • والمعروف أن الحملة الصليبية الاولى كانت تمثل قمة النظام الاقطاعى المعاصر فى غرب أوروبا ، ومن أجل هذا

---

(١) Oman : op. cit. Vol. II pp. 29—31
Fedden : op. cit. pp. 38—39

(٢) Fedden : op. cit. pp. 39—40

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ، ج ٤ ، ص ٢١ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢١٥ ـ ص ٣١٧ •

(٤) Longnon : op. cit. p. 148 and
Fedden : op. cit. pp. 31—32

قامت مملكة بيت المقدس على نظام اقطاعى • وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، اتسع نطاق العمليات الحربية بين المسلمين والصليبيين ، وتعرضت مملكة بيت المقدس لضغط اسلامى متزايد ، فى الوقت الذى صارت فيه اعباء ونفقات القلاع ، والحفاظ عليها ، مسئولية ابعد من أن يتحملها كبار السادة الاقطاعيين (١) • ولهذا عمل السادة الاقطاعيون الواحد بعد الآخر ، على بيع قلاعهم أو تقديمها فى صورة هبة ، حتى جاء اليوم الذى صارت فيه ملكية قلعة كبيرة لسيد اقطاعى ، أمرا نعتبره فى حكم الاستثناء • وقد آل معظم تلك القلاع ـ خاصة القلاع الضخمة الواقعة على الحدود ـ فى منتصف القرن الثانى عشر الى طائفتى الاسبتارية والداوية ، اللتين اضطلعتا بالحفاظ على تلك القلاع ، فضلا عن مسئولية الدفاع عن مملكة بيت المقدس بأسرها (٢) • كذلك من الاسباب التى ادت الى منح القلاع والحصون للطوائف الدينية الحربية ، تناقص القوة الضاربة للصليبيين ، اذ تضاءلت الاصوات المقيمة بامارات الفرنج ، اما بالوفاة أو بالوقوع فى الاسر ، ولذا اعتمد أمليريك الاول (١١٦٣ ـ ١١٧٤ م) اساسا على منظمتى الاسبتارية والداوية ، اللتان تسلمتا فى سنة ١١٦٧ م والسنوات التالية عددا كبيرا من الحصون وما يحيط بها من الاراضى (٣) • وكان بوسع الصليبيين الزائرين أن يقاتلوا الموسم او الموسمين ، غير انهم لن يلبثوا أن يعودوا الى بلادهم • اما طوائف الفرسان الرهبان ، فكفلت مددا لاينقطع من العساكر الاتقياء المحترفين ، الذين لم يكلفوا الملك شيئا من النفقات ، والذين توافر لهم من الثروة ما يكفى لان يقيموا من القلاع وينفقوا عليها ، الأمر الذى لم يتيسر الا لقلة من السادة الاقطاعيين (٤) •

والقلاع التى آلت للطوائف الدينية العسكرية ، بعض احجامها ينزع الى الضخامة مثل الكرك أو عثليت ، فكل منها تعتبر مدينة عسكرية ، لأنها تأوى الآلاف من المقاتلين والاتباع اللازمين لهم (٥) • وما حازته طائفة

---

(١) Fedden : op. cit. p. 32

(٢) Ibid. pp. 32—33

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠٨ •

(٤) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٠٢ •

(٥) Deschamps : Le Crac des Chevaliers. Vol. II pp. 70—75

الاسبتارية من قلاع مثل : القلعة الضخمة التى اشتهرت بحصن الفرسان (الأكراد) ؛ وحصن كوكب الذى تحكم فى مخاضا تنهر الاردن الى الجنوب من بحر الجليل (١) ؛ وحصن ارسوف الذى تسلمه السلطان الظاهر بيبرس بعد حصار دام أربعين يوما (٢) ؛ وحصن المرقب تلك الكتلة الهائلة الضخمة من البناء التى هيأت لمواجهة امكان قيام زلزال ، شيدت على قمة جبل (٣)، وقد تنازل برتراند مانسويه عن ذلك الحصن للاسبتارية فى أول فبراير عام ١١٨٦ م بتصريح من سيده بوهيموند (٤) • وعن مناعة ذلك الحصن قال العماد الاصفهانى (٥) : « وهو معقل للاسبتارية ، عالى المنكب ، سامى المرقى والمرقب ، ضيق المذهب ، عسر المطلب » • ويكفيه أنه قاوم الباطنية بجدارة ، وحرس حدود امارات انطاكية وطرابلس (٦) • وكان من الممكن رؤية قلعة المرقب على بعد فراسخ ، ذلك لأنها ــ كما قلنا ــ تتوج قمة تل منزوى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ٢٠٠٠ قدم ، وقد بنيت من الحجر البازلت الاسود ، ويتميز برجها الرئيسى بأنه أضخم من أى برج • وسورها المزدوج المحيط بها ، مزود بالعديد من الأبراج المرتفعة التى تبدو كأنها تمسك بأعنان السماء • وقد اخضعت القلعة لنفوذها شيخ الجبل (زعيم الباطنية) وملك حلب ، على الرغم من القلاع العديدة التى كانت تحت ايديهما ، وقد اضطرا لدفع جزية سنوية مقدارها الفين من المباركات من أجل الحفاظ على السلام معهما (٧)• وتولى نوبات حراسة القلعة كل مساء أربعة فرسان وثمان وعشرون رجلا ، حتى فى أوقات السلم احتفظ الاسبتارية بحامية قوامها خمسة آلاف رجل • وزودت القلعة بالاحتياجات الضرورية التى تكفيها خمس سنوات ؛ وفى القلعة

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ ،
ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ •

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ •

(٣) Archer : op. cit. p. 361

(٤) Dussaud: La Syrie Antique. p. 152

(٥) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ •
Camille : Les Monuments des Croisés. Vol .II pp. 442—443 &
ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ١ ، ورقة ٨٠ •

(٧) Lamb : op. cit. p. 275

بعد الغروب كان يجتمع حول موائد العشاء فرسان الاسبتارية ، بأرديتهم السوداء من جنسيات مختلفة ، مثل الالمانى والايطالى والفرنسى والبروفنسالى والانجليزى والقطلانى والاسبانى (١) ٠

أما طائفة الداوية ، فقد حازت على قلاع مثل : صفد التى فتحها صلاح الدين الايوبى عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) (٢) ؛ وقلعة حصن الاحزان الذى بناه الداوية عام ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) ، وهدمه صلاح الدين فى العام التالى (٣)، وحصن طرطوس الذى امتنع برجه الضخم عن السقوط فى أيدى المسلمين عام ١١٨٨ م (٤) ؛ وحصن دربساك الذى كان « مرتفع الذرى ، ممتنع الذرا ، قد جاوزت الجوزاء ، وناجت أرضه السماء » ، بيد أنه سقط فى أيدى صلاح الدين عام ٥٨٤ هـ (٥) ٠ ومن تلك الحصون أيضا : حصن بغراس على مقربة من انطاكية ، وقلعة صافيتا فى منتصف المسافة بين طرسوس وحصن الاكراد ، التى شيدت على تل وعر صعب المسلك ، على ارتفاع يبلغ حوالى ٣٢٠ مترا ، ولكنها سقطت فى أيدى السلطان الظاهر بيبرس فى يناير عام ١٢٧١م (٦)٠

ومن الطوائف الدينية الحربية التى حازت على قلاع ، منظمة فرسان التيوتون ، ولكن عددها كان قليلا ، لايقارن بعدد قلاع الداوية والاسبتارية ، ومن قلاع التيوتون قلعة القرين ، التى شيدت عام ١٢٢٧ م على مرتفع صخرى يبلغ حوالى ١٨٥ مترا ، على الحدود الغربية للجليل شمال فلسطين ، وهى ترجع الى أصل فرنسى ، وكانت مقرا لمونتفرت Montfort ، ثم تنازل عنها سيد ماندليه Le Seigneur de Mandelée لمقدم منظمة التيوتون هرمان دى سالزا Herman de Salza عام ١٢٢٩ م وصارت منذئذ مركزا للمنظمة ، وفرض عليها الظاهر بيبرس الحصار عام ١٢٦٦ م ، ولكنها لم تسقط فى يده

---

(١) Lamb. : op. cit. pp. 275—276
Dussaud : op. cit. p. 151

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٧١ ٠
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ ٠
(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ ٠
(٥) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١١٧ ٠
(٦) Camille : op. cit. Vol. II pp. 89—90

الا عام ١٢٧١ م ، فما كان منه الا أن دك أسوارها (١) · وفى عام ١٢٥٧م منح حاكم صيدا أو صاحب قلعة الشقيف ، قلعة شقيف تيرون للفرسان التيوتون، وهى تقع الى الشمال من قلعة الشقيف على بعد بضعة اميال ، وتعرف الآن بقلعة نيحـا (٢) ·

واذا كانت الطوائف الدينية العسكرية للفرنجة قد امتلكت القـلاع والحصون ببلاد الشام ، فان طائفة الاسماعيلية التى لعبت دورا كبيرا بين المسلمين والصليبيين ، امتلكت القلاع أيضا ، اما بطريق المنح أو الشراء أو الحيلة · فبعد أن عظم امر الاسماعيلية بالشام عام ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) ، وانتشر مذهبهم ، طلبوا من طغتكين صاحب دمشق حصنا ، فوهبهم قلعـة بانياس (٣) · وقد شيدت تلك القلعة على قمة عند سفح جبل الشيخ ، وتسميها العامة قلعة النمرود (٤) · واستطاعت تلك الطائفة أن تشترى قلعة حصن القدموس ، وهى قلعة بالقرب من الخوابى ، واتخذتها سكنا لها ، ثم انطلقت منها لمحاربة جيرانها من المسلمين والصليبيين (٥) · وفى عام ٥٣٥ هـ استطاعت تلك الطائفة أيضا ، الاحتيال على صاحب حصن مصياث (مصياف) فى جبال النصيرية ، ومكروا به ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه بطريق الحيلة والمكيدة (٦) · وقد حاول صلاح الدين الايوبى الاستيلاء على ذلك الحصن بعد قلاعهم أيضا : أبو قبيس ، والكهف ، والمنيقة ، والعليقة ، والرصافة ، وهى أن فرض عليه الحصار عام ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، ولكنه أخفق (٧) · ومن قلاع « رفيعة المقدار ، لاتسامى منعة ، ولا ترام حصانة (٨) ·

Les Guides Bleus, pp. 504—506

King : op. cit. p. 305

(٢) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٦٠ ـ ص ٢٦١ ·

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٠ هـ ·

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٦٠ ·

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٧ هـ ·

(٦) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ ·

Dussaud : op. cit. p. 128

أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٥

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢ ·

(٧) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٥٩ ·

Dussaud : op. cit. p. 129

(٨) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤٦ ـ ص ١٤٧ ·

ومن المسلم به أن القلاع والحصون الصليبية ، قد شيدت فى المقـــام الاول ، بغرض الدفاع عن الكيان الصليبى بالشام ؛ واصطبغت بصـــبغة عسكرية وارتبطت بنظام صارم ، ولا سيما القلاع التى كانت فى حوزة الطوائف الدينية الحربية ، فلم يكن بها مأوى للنساء (١) • ولكن تلك القلاع قامت بوظائف فعالة أخرى ، اذ كانت مراكز ادارية تموج بالسلام ، وعلامة بارزة على التطور الاقتصادى (٢) • وفضلا عن ذلك فقد كانت تلك القلاع مراكزا لعدد من المجتمعات القروية الهادئة ، فالصليبيون ربطتهم علاقات طيبة مـع القرى المحيطة بهم من ناحية ، وسكانها الاصليين من الموارنة والمسلمين والشيعة والدروز ممن عاشوا فى أراضيهم من ناحية أخرى (٣) • واحتفظت القلاع بمظاهرها الدينية والاجتماعية والجمالية • فالبناؤون ـ خاصـــة السريان والروم ـ الذين استطاعوا بناء الاسوار الضخمة الصلبة ، كان فى امكانهم أيضا ـ اذا اقتضت الحاجة وقت السلم ـ ان يبتدعوا نحتا مزخرفا رائعا ، وليس أدل على ذلك من الكنائس الصغيرة La Chapelle ذات التصويرات الحائطية الملحقة بالقلاع (٤) • وكان بكل قلعة كبيرة ، غرفة واسعة كبيرة Great Chamber ،يصل طول البعض منها الى ما يزيد على ثمانين مترا (٥) • فالحجرة التى كانت للمقدم فى حصن الكرك ، بسقفها المعقود البارز، وبأعمدتها المربعة النحيلة ، وبشريطها الزخرفى البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور ، هذه الحجرة فاقت فى الروعة والابداع معظم حجرات الحصون الكبيرة (٦) • وكان يعلق على جدران الحجرات الرايات والنصب التذكارية ، والنسيج المزدان بالرسوم والصور ؛ وقد وصف لنـــا الرحالة الالمانى ولبراند أولدنبرج W.lbrand of Oldenburg فى بداية القرن الثالث عشر ، غرفة كبيرة رآها فى قلعة بيروت ـ يبدوانها تضمنت الهامـــا

---

(١) Miller : Essays on the Latin Orient. p. 521

(٢) Small : Crusading Warfare. p. 60

(٣) Fedden : op. cit. pp. 40—4 1

(٤) Camille : op. cit. Vol. II p. 314
Fedden : op. cit. p. 41

(٥) Longnon : op. cit. p. 148

(٦) Enlart : Les Monuments des Croisés. Vol. II pp. 95—98.

بيزنطيا عربيا ـ ، قائلا : « غطيت الأرض بالفسيفساء ، والمياه ينبعث منها الخرير ، والنسمات هادئة خفيفة ، ويعتلى المرء الدهشة عندما يسير ولا يرى أثرا لوقع اقدامه على الرمل ، وغطيت جدران الغرفة بشرائح من الرخام الرائع الجمال ، والسقف مدهون بلون مشابه للون السماء ... وفى وسط الغرفة نافورة من الرخام المتعدد الالوان ، تتدفق منها مياه شفافة تأخذ مسارا منحنيا ، والنسيم الآتى من خلال النوافذ المفتوحة يمد الغرفة بانتعاش لذيذ (١) » .

وفى تلك الغرف كان يجلس الفرسان لسماع الموسيقى العربية المنبعثة من عود شرقى ، فى الوقت الذى كانوا يحتسون النبيذ المحلى (٢) . وفى قلعة الحاج (عثليت) وجد الحجاج الصليبيون وسائل الراحة النادرة ، وفى نزل القلعة استطاعوا وضع امتعتهم الشخصية الى جانب الفراش النظيف المحشو بالقش . وتناولوا طعامهم فى حجرة طويلة ، انعشها نسيم البحر ، وفى تلك الحجرة كان بامكانهم مشاهدة ضباط الداوية وهم يتبادلون الحديث (٣) . وتلك الغرف الكبيرة كانت معدة ايضا لعقد مؤتمرات الحرب ، واستقبال كبار الضيوف (٤) .

وعلى أية حال ، فان الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية بالتحصينات الحربية من الطراز الاول ، استفاد منها الفرنجة ايما استفادة . فبعد ان عادوا الى اوطانهم فى الغرب الاوروبى ، ظهر تأثير الخبرة التى أكتسبوها فى العمارة الحربية واضحا ، فقد أدركوا الانجازات العظيمة فى آلات الحصار القوية ، والتأثيرات الرهيبة لحفر الخنادق وزرع الالغام ، فضلا عن ضرورة اختيار الموقع المناسب لتشييد القلعة أو الحصن . ولا أدل على ذلك من قلعة شاتو جايار التى شيدها ريتشارد الأول ملك انجلترا (١١٩٦ ـ ١١٩٨ م) على نهر السين ، على جرف شديد الانحدار بلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم ، وكانت أعظم القلاع قوة فى الغرب الأوروبى آنذاك ؛ فضلا عن القلاع التى شيدت

---

(١) Fedden : op. cit. p. 41

(٢) Loc. cit.

(٣) Lamb : op. cit. pp. 273—274

(٤) Dussaud : op. cit. p. 144

فى نورماندى وانجلترا وروشستر ، التى يتضح منها التأثير البيزنطى (١) ٠ ولا ينبغى أن نغفل ان عمائر صلاح الدين الايوبى الحربية فى القاهرة ، تمثل قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، والعربية البيزنطية أحسن تمثيل ، وتوضح مدى التفاعل الحاصل بين المدرستين (٢) ٠

* * *

(١) Ency. Brittanica, Art. Castle and
Lethaby : Mediaeval Art. pp. 105—106

(٢) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٢٠٨ ٠